دكتور يوسف القرضاوي

نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام
(٣)

موقف الإسلام

من الإلهام .. والكشف .. والرؤى
ومن التمائم .. والكهانة .. والرقى

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

مَوقِفُ الإِسلام

من الإلهام .. والكشف .. والرؤى
ومن التمائم .. والكهانة .. والرقى

الدكتور يوسف القرضاوي

نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام

(٣)

موقف الإسلام

من الإلهام .. والكشف .. والرؤى
ومن التمائم .. والكهانة .. والرقى

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

من الدستور الإلٰهى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ .

(الأنفال : ٢٩)

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(العنكبوت : ٦٩)

﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

(البقرة : ١١١ ، والنمل : ٦٤)

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوه لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِن أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ .

(الأنعام : ١٤٨)

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾.

(النجم : ٢٨)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ .

(سبأ : ٤٦)

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله ، كما ينبغى لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه . .

والصلاة والسلام على أكمل الخلق إيماناً ، وأرجحهم عند الله ميزاناً ، وأنصعهم فى الحق بياناً ، وعلى آله وصحبه ، ومَن سار على دَرْبه إلى يوم الدين .

أما بعد . .

فهذا هو الجزء الثالث من أجزاء هذه السلسلة « **نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام** » ، وهى السلسلة التى تتمحور حول « **الأصول العشرين** » للإمام الشهيد حسن البنا رضى الله عنه ، وقد حُرِّر منها قبل ذلك جزءان : الأول عن « **شمول الإسلام** » ، والثانى عن « **المرجعية العليا فى الإسلام** » ، وهى من غير شك للمصدرين المعصومين : القرآن ، والسُّنَّة ، وقد تضمَّن هذا الجزء « ضوابط ومحاذير فى الفهم والتفسير » .

وها أنا أُقدِّم لك - أخى القارىء المسلم - الجزء الثالث ، وهو يتضمن شرح أصلين من الأُصول العشرين ضممتهما فى كتاب واحد ، وهما : الأصل الثالث المكمل للأصل الثانى ، والمتفرع عنه ، وفيه بيان الموقف من الإلهام والكشف والرؤى ، وهل تُعتبر حُجَّة فى الأحكام الشرعية أو لا تعتبر أصلاً ؟ وهل يُعتد بها فى أى أمر من أُمور الحياة أو لا يُعتد بها قط ؟ وقد ذكرنا هنا موقف الغلاة فى الإثبات ، والغلاة فى النفى ، وموقف الربانيين المعتدلين من أئمة أهل السُّنَّة والجماعة ، وردنا على المُفْرِطين والمفَرِّطين معاً .

والأصل الرابع .. وهو الذى يتضمن حماية حمى التوحيد ، ورعاية سنن الله فى الخلق وفى الاجتماع البَشرى ، واحترام نظام الأسباب والمسببات فى التداوى أو المعرفة ، ورفض المظاهر الشركية من تعليق التمائم ، والعلاج بالرقى غير المشروعة ، وادعاء الكهانة ومعرفة الغيب . . . ومقاومة ذلك كله باعتباره منكراً من المنكرات التى يجب أن تُغيَّر باليد أو باللسان أو بالقلب ، وذلك أضعف الإيمان .

أرجو أن يجد القارئ الكريم فى هذا الجزء ما وجده فى أخويه السابقين مما يقوى وحدة الاتجاه ، وتقارب الفكر ، لدى العاملين للإسلام ، من أفراد وجماعات .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلَّى الله على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

الدوحة : فى ذى الحجة ١٤١٤ هـ - الموافق (مايو ١٩٩٤ م)

الفقير إلى عفو ربه
يوسف القرضاوى

* * *

الأصل الثالث

موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى

.. وهل يؤخذ منها حكم شرعى ؟

« وللإيمان الصادق ، والعبادة الصحيحة ، والمجاهدة : نور وحلاوة ، يقذفها الله فى قلب مَن شاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تُعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه » .

حسن البنا

* * *

الأصل الثالث

موقع الإلهام والكشف والرؤى من الدين

يقول الإمام حسن البنا فى رسالة « التعاليم » :

« وللإيمان الصادق ، والعبادة الصحيحة ، والمجاهدة : نور وحلاوة ، يقذفها الله فى قلب مَن شاء من عباده . ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تُعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه » .

هذا الأصل تأكيد وتتميم للأصل السابق الذى حدَّد مصادر المعرفة للأحكام الشرعية فى القرآن والسنة ، ويُبيِّن موقف الحركة الإسلامية بصراحة من المفرّطين الحرفيين الظاهريين الذين ينكرون أى أثر لعمق الإيمان وصحة العبادة، وصدق المجاهدة ، فى تنوير العقل وهداية القلب ، ومن المفْرطين من المتصوفة الذين يجعلون أذواقهم ومواجيدهم ، وخواطر نفوسهم ، وما يُلهَمونه فى اليقظة ، أو يرونه فى النوم ، دليلاً يحتجون به على أعمالهم وأقوالهم كأنه الوحى المعصوم ، بل قد يجعلون هذا الكشف أو الإلهام ، أو الرؤيا ، حُجَّة على الشرع نفسه ، وهذا ضلال مبين ، وخِطْء كبير .

● حقائق ثلاث يتضمنها هذا الأصل :

ومن هنا جاء هذا الأصل يتضمن حقائق ثلاثاً :

الحقيقة الأولى : الاعتراف بأثر الإيمان والعبادة والمجاهدة فى تصفية النفس وإشراقها ، وصدق فراستها ، وهدايتها سُبُل الخير ، وأنها قد تُلهم الرشد والصواب فى يقظتها ، وتصدق رؤياها فى منامها .

الحقيقة الثانية : أن هذا الاعتراف لا يعني أن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى من أدلة الأحكام الشرعية ، حتى يُحتج بها على صحة الاعتقاد ، أو سداد النظر ، أو استقامة العمل ، ولهذا نفى ذلك في صراحة ووضوح .

الحقيقة الثالثة : أن الإلهام ولواحقه لا تُعتبر - في غير الأحكام الشرعية طبعاً - إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه .

* *

● **أثر الإيمان والعبادة والمجاهدة في النفس :**

أما الحقيقة الأولى وهي الاعتراف بأن للإيمان الصادق ، والعبادة الصحيحة ، والمجاهدة للنفس ، نوراً وحلاوة يقذفها الله في قلب مَن يشاء من عباده ، فذلك ما دلَّت عليه النصوص ، ودلَّت عليه الوقائع والاستقراء .

أما النصوص فهي كثيرة ، منها :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [١] ، أي نوراً تفرقون به بين الحق والباطل ، وتخرجون به من الشبهات .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [٣] دلَّت على أن للمجاهدة في الله أثرها في هداية الإنسان إلى سبل الله ، وهي سُبُل الحق والسداد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [٣] ، والمخرج يشمل كل ما يُخلِّص الإنسان من المآزق والمضايق، ومنها مآزق الحيرة والشبهة ، والرزق الموعود ، كما يشمل الرزق المادي ، يشمل الرزق المعنوي من الهداية والتوفيق إلى صواب الفكر ، واستقامة السلوك .

وفي القرآن الكريم كثير من النصوص التي تدل على أن الاهتداء بآيات الله الكونية ، وآياته التنزيلية ، مقصور على أهل التقوى ، الذين أنار الله بها بصائرهم، كما

---

(١) الأنفال : ٢٩ (٢) العنكبوت : ٦٩ (٣) الطلاق : ٢ - ٣

في مطلع سورة البقرة : ﴿ ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ، هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) ، ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

وفي آيات الكون يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

وسيأتي مزيد لبيان هذه الحقيقة فيما يأتي (٤) ، وحسبنا أن نذكر هنا الحديث الصحيح : « ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار » (٥) .

وأما الحقيقة الثانية ، والحقيقة الثالثة - اللتان تضمنهما هذا الأصل - فسنتحدث عنهما بالتفصيل في الصحائف التالية .

* * *

---

(١) البقرة : ٢ (٢) آل عمران : ١٣٨ (٣) يونس : ٦

(٤) انظر : كلام الغزالي ص ٩٦ ومابعدها من هذا الكتاب .

(٥) متفق عليه من حديث أنس ، انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، حديث (٢٦) .

الإلهام هل هو حُجَّة فى الأحكام الشرعية ؟

هذا موضوع يهتم به علماء العقيدة والتوحيد ، وهم الذين يُعرفون باسم « المتكلمين » ، لأنه يتصل بطرائق العلم التى يتوصل بها إلى المعرفة بحقائق الدين الكبرى من الألوهية والنبوة والمعاد .

ورجال العقيدة يلتقون هنا مع رجال الفلسفة ، فى بحثهم حول نظرية المعرفة ، وهل هناك طريق للمعرفة غير العقل والحس ؟ وهى أحد الموضوعات الثلاثة الرئيسية التى تدور حولها الفلسفة قديمها ووسيطها وحديثها ، وهى : الوجود ، والمعرفة ، والقيم العليا (الحق والخير والجمال).

وكذلك يهتم به علماء الأصول ، لأنه يتعلق بتحديد مصادر المعرفة للأحكام الشرعية ، وهل هناك مصدر لها غير الكتاب والسُّنَّة ، وما دلا عليه من الإجماع والقياس ؟

ويهتم به أيضاً علماء التصوف ، بل هو أخص شىء بهم ، وهم أصحابه وفرسانه ، وهم الذين يُنقل عنهم أنهم يعتمدونه مصدراً للتحسين والتقبيح ؟

ولهذا كان تحرير هذا الأمر من المهمات العلمية ، حتى لا تضيع الحقيقة بين الغُلاة فى النفى والغُلاة فى الإثبات ، كأكثر الأمور فى عالَم الفكر ، يفْرِط فيها أُناس ويُفَرِّط فيها آخرون .

وقبل أن نتحدث عن الآراء والاتجاهات فى هذا الموضوع ، لا بد لنا أن نحدد « المفاهيم » ، فإن الحكم على الشىء فرع عن تصوره .

● ما الإلهام :

فى القرآن الكريم وردت المادة مرة واحدة ، بصيغة الفعل الماضى ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [1] ،

(١) الشمس : ٧ - ٨

وفسّر ذلك « معجم ألفاظ القرآن الكريم » الصادر عن مجمع اللُّغة العربية بقوله : ألقى فيها إحســاســاً تُفرّق به بين الضلال والهدى ، ولعل ذلك ما يُعرف فى عصرنا بـ « الضمير » .

وما ذكره المعجم مأخوذ مما روى عن مفسِّرى السَلَف مثل مجاهد وغيره فى معنى الآية .

وقال فى القاموس المحيط : ألهمه الله خيراً : لقَّنه إياه .

وقال شارحه الزبيدى فى تاج العروس : الإلهام : ما يُلقى فى الرُّوع بطريق الفيض ، ويختص بما من جهة الله والملأ الأعلى ، ويقال : إيقاع شىء فى القلب يطمئن له الصدر ، يخص به الله مَن يشاء من عباده (١) .

وفى لسان العرب : الإلهام أن يلقى الله فى النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك ، وهو نوع من الوحى ، يخص الله به مَن يشاء من عباده (٢) .

وفى شرح « العقائد النسفية » لسعد الدين التفتازانى : الإلهام إلقاء شىء فى القلب بطريق الفيض (٣) .

وفى « التعريفات » للشريف الجرجانى : الإلهام : ما يُلقى فى الرُّوع بطريق الفيض ، وقيل : الإلهام ما وقع من علم وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر فى حُجَّة ، والفرق بينه وبين الإعلام : أن الإلهام أخص من الإعلام؛ لأنه قد يكون بطريق الكسب ، وقد يكون بطريق التنبيه(٤) .

---

(١) تاج العروس ، مادة « لهم » .

(٢) مادة « لهم » من اللسان ، والتعريف مقتبس من « النهاية » لابن الأثير ، كما سيأتى بعد سطور .

(٣) شرح العقائد النسفية مع حواشيها ، ص ٤١ ، طبع مصطفى الحلبى .

(٤) التعريفات للجرجانى ص ٥٧ ، طبع عالم الكتب ، ببيروت ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة .

وفى « النهاية » لابن الأثير فى مادة « لهم » ذكر حديث : « اللَّهم إنى أسألك رحمة من عندك تلهمنى بها رشدى » [1] ، ثم قال : الإلهام : أن يلقى الله في النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك وهو نوع من الوحى يخص الله به مَن يشاء من عباده [2] .

وفى مادة « حدَّث » ، ذكر حديث : « قد كان فى الأمم مُحدَّثون ، فإن يكن فى أمَّتى أحد فعمر بن الخطاب » [3] ، قال : جاء فى الحديث تفسيره أنهم الملهَمون ، والملهم هو الذى يلقى فى نفسه الشىء ، فيخبر به حدساً وفراسة وهو نوع يختص به الله مَن يشاء من عباده الذين اصطفى ، مثل عمر ، كأنهم حُدِّثوا بشىء فقالوه [4] .

وعرَّفه العلامة أبو زيد الدبوسى من فقهاء الحنفية ، بقوله : هو ما حرَّك القلب لعلم يدعو إلى العمل به من غير استدلال [5] .

وكثيراً ما يعبر الصوفية عن « الإلهام » بـ « الكشف » لأنه يكشف لهم عن أمور مغيبة عما سواهم ، فهى ظاهرة لديهم ، خافية على غيرهم ، وستأتى مناقشتهم .

وهذه التعريفات كلها تدور حول معنى أساسى ، وهو أن الإلهام إلقاء معنى أو فكرة أو خبر أو حقيقة ، فى النفس أو القلب أو الرُّوع - سمه ما شئت - بطريق الفيض ، بمعنى أن يخلق الله فيه علماً ضرورياً لا يملك

---

(١) من حديث رواه الترمذى والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس ، وقال الترمذى : غريب ، وذكره فى ضعيف الجامع الصغير .

(٢) النهاية : ٤/ ٢٨٢

(٣) متفق عليه وسيأتى .

(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر : ١/ ٣٥٠ ، طبع عيسى الحلبى .

(٥) نقله الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : ١٦/ ٤٣ ، طبع مصطفى الحلبى .

دفعه . أى ليس بطريق التعلم والاكتساب المعهود ، بل هو يُفاض على النفس فيضاً ، بغير اختيارها ولا إرادتها ، سواء سعت إليه سعياً عن طريق الرياضة الروحية وتفريغ القلب من كل شىء ، كما سيأتى ذلك بعد فى كلام الإمام الغزالى ، أم أُفيض ذلك عليها كرامة من الله لها ، وخرقاً للعوائد من أجلها ، وإن لم تتعمد السعى إليه .

ومن شأن هذا العلم الضرورى - إذا أُلقى فى القلب - أن يُحرِّك إلى العمل ، ويبعث على الفعل أو الترك ، كما جاء فى بعض التعريفات ، فهو نتيجة وثمرة له .

والتعريفات التى ذكرت أن الإلهام نوع من الوحى يُقصد بها : أنها نوع من الوحى بمعناه اللُّغوى ، وهو الإعلام بخفاء وسرعة ، أو أنه نوع من الوحى بالنسبة للأنبياء ، فهو أحد طرق الوحى المتضمنة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ، فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

فقوله : ﴿ إِلَّا وَحْياً ﴾ يشمل ما كان عن طريق الإلهام والنفث فى الرُّوع فى اليقظة ، وما كان عن طريق الرؤيا المنامية ، فرؤيا الأنبياء وحى .

وهذا الإلهام أو الكشف هو ضرب من المعرفة الروحية المباشرة ، التى عرفتها بعض المدارس الفلسفية قديماً وحديثاً ، وهى المعرفة عن طريق « الحدس » أو « البصيرة » ، وفى الفلسفة القديمة عرفت بذلك « الغنوصية » .

وفى الفلسفة الحديثة عُرِف فلاسفة أشهرهم الفيلسوف الفرنسى « هنرى برجسون » الذى أطلق عليه : فيلسوف الروح فى القرن العشرين .

* *

---

(١) الشورى : ٥١

● **الإلهام والتحديث :**

ويُسأل هنا : هل الإلهام هو نفس التحديث الذى جاء فى الحديث الصحيح : « إنه كان قبلكم محدَّثون » ، أو هو غيره ، أو بينهما عموم وخصوص ؟

الذى نقلناه من كلام صاحب « النهاية » يدل على أنهما بمعنى واحد ، ومثل ذلك ما ذكره شيخ الإسلام إسماعيل الهروى صاحب « منازل السائرين إلى مقامات : إياك نعبد وإياك نستعين » ، فهو لم يُفرِّق بينهما ، وذهب إلى أنهما شيء واحد ، وقد جاء فى عدة روايات تفسير التحديث بالإلهام .

ولكن شارح « المنازل » الإمام ابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين » خالف الهروى ، ورأى أن بين الإلهام والتحديث عموماً وخصوصاً ، فالتحديث أخص ، ،والإلهام أعم ، فكل تحديث إلهام ، وليس كل إلهام تحديثاً .

قال : التحديث أخص من الإلهام ، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم ، فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذى حصل له به الإيمان . فأما التحديث : فالنبى ﷺ ، قال فيه : « إن يكن فى هذه الأمة أحد فعمر » يعنى من المحدَّثين . فالتحديث إلهام خاص ، وهو الوحى إلى غير الأنبياء ، إما من المكلَّفين ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ (٢) ، وإما من غير المكلَّفين ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٣) ، فهذا كله وحى إلهام (٤) .

* *

---

(١) القصص : ٧ — (٢) المائدة : ١١١
(٣) النحل : ٦٨ — (٤) مدارج السالكين : ١/ ٤٤ ، ٤٥

● **الإلهام والفراسة :**

ومما له صلة بالإلهام : الفراسة ، فما معنى الفراسة ؟ وما العلاقة بينها وبين الإلهام ؟

يقول الراغب فى كتابه « الذريعة إلى مكارم الشريعة » :

وأما الفراسة : فالاستدلال بهيئات الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، وربما يقال : هى صناعة صيَّادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله ، وقد نبَّه الله تعالى على صدقها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ (٢) ، وبقوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ (٣) .

والضرب الثانى من الفراسة : يكون بصناعة متعلَّمة ، وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية ، ومَن عرف ذلك وكان ذا فهم ثاقب ، قوى فى الفراسة ، وقد عُمِل فى ذلك كتب، فمن تتبع الصحيح منها طلع منها على صدق ما ضمنوه . والفراسة ضرب من الظن ، وقد سئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما ، فقال: الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب تعالى ، وكل مَن قوى فيه نور الروح المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ (٤) ، كان ممن وُصِف بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾(٥) وكان ذلك النور شاهداً منه أصاب فيما حكم به .

---

(١) الحجر : ٧٥ (٢) البقرة : ٢٧٣ (٣) محمد : ٣٠

(٤) الحجر : ٢٩ (٥) هود : ١٧

ومن الفراسة : علم الرؤيا ، وقد عظَّم الله أمرها فى جميع الكتب المنزَّلة (١) .

والراغب هنا لا يُفرِّق بين الإلهام والفراسة والتحديث .

وأما الهروى فى « المنازل » ، فقد جعل مقام الإلهام فوق مقام الفراسة ، لأن الفراسة ربما وقعت نادرة ، واستصعبت على صاحبها وقتاً ، واستعصت عليه ، والإلهام لا يكون إلا فى مقام عتيد .

وناقش ابنُ القيم الهرويَّ فى ذلك فقال :

« وأما جعله فوق مقام الفراسة : فقد احتُج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم ، والنادر لا حكم له ، وربما استعصت على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه ، والإلهام لا يكون إلا فى مقام عتيد ، يعنى فى مقام القرب والحضور .

والتحقيق فى هذا : أن كل واحد من « الفراسة » و« الإلهام » ينقسم إلى عام وخاص ، وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر ، وعام كل واحد قد يقع كثيراً ، وخاصه قد يقع نادراً ، ولكن الفرق الصحيح : أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل ، وأما الإلهام فموهبة مجرَّدة ، لا تُنال بكسب ألبتة » (٢) .

* *

● مواقف العلماء من الإلهام :

وإذا عرفنا حقيقة الإلهام ، بقى علينا أن نعرف مواقف أهل العلم المسلمين - من متكلمين وأصوليين وفقهاء ومُحدِّثين - من الإلهام ، ومدى حجيته أو مصدريته للمعرفة ، ومدى الثقة بما يأتى عن طريقه من معارف وأفكار .

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهانى ص ١٨٦ - ١٨٨ ، تحقيق د . أبو اليزيد العجمى ، نشر دار الصحوة بالقاهرة .

(٢) مدارج السالكين : ١/ ٤٥

ونستطيع أن نقسم هذه المواقف إلى ثلاثة :

١ - موقف النفاة الرافضين للإلهام .

٢ - موقف المثبتين القائلين بحجية الإلهام .

٣ - موقف المتوسطين بين الفريقين .

● موقف النفاة المنكرين للإلهام :

ومن الإنصاف أن أبادر هنا فأقول : إنى لم أجد - من العلماء المعتبرين لدى الأُمَّة - مَن ينفى الإلهام نفياً كلياً وينكره إنكاراً مطلقاً .

بل النفى منصب على الاعتداد به أصلاً ودليلاً شرعياً ، واعتباره حُجَّة مستقلة ، بحيث يُستدل به على الحق والصواب فى باب المعارف والاعتقادات ، وعلى مشروعية الفعل أو الترك فى باب التعبدات والمعاملات .

وذكر العلامة النسفى فى « عقائده » المشهورة لدى أهل السُّنَّة من الأشاعرة والماتريدية ، أن أهل الحق حصروا أسباب العلم اليقينى للخلق فى ثلاثة :

١ - الحواس السليمة . ٢ - والخبر الصادق . ٣ - والعقل .

* ويريد بالحواس السليمة الخمس المعروفة .

* وأما الخبر الصادق فهو نوعان : الخبر المتواتر وهو الثابت على ألسنة قوم لا يُتصور تواطؤهم على الكذب ، وخبر الرسول المؤيَّد بالمعجزة .

* والعقل منه ما هو ضرورى وما هو نظرى .

ثم قال النسفى : « والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق » .

وقال الشارح التفتازانى : « الظاهر أنه أراد أن الإلهام ليس سبباً يحصل به العلم لعامة الخلق ، ويصلح للإلزام على الغير ، وإلا فلا شك أنه قد يحصل به العلم » (١) .

---

(١) العقائد النسفية بشرحها وحواشيها ، ص ٤١ ، طبع مصطفى الحلبى .

ونقل الشوكاني عن القفال قوله : « لو ثبتت العلوم بالإلهام لم يكن للنظر معنى ، ونسأل القائل بهذا عن دليله ، فإن احتج بغير الإلهام فهو ناقض قوله » أ هـ .

قال الشوكاني : ويُجاب عن هذا الكلام بأن مُدَّعي الإلهام لا يحصر الأدلة في الإلهام ، حتى يكون استدلاله بالإلهام مناقضاً لقوله . نعم إن استدل على إثبات الإلهام بالإلهام كان ذلك مصادرة على المطلوب ، لأنه استدل على محل النزاع بمحل النزاع .

ثم على تقدير الاستدلال بثبوت الإلهام بمثل ما تقدَّم من الأدلة ، من أين لنا أن دعوى هذا الفرد لحصول الإلهام له صحيحة ؟! [1] .

ونقل في « مسلّم الثبوت » عن بعض العلماء ، واختاره محقق الحنفية العلامة الكمال بن الهمام : أن الإلهام ليس بحُجَّة مطلقاً ، لا في حق الملهَم نفسه ، ولا في حق غيره ، وعلل ذلك بانعدام ما يوجب نسبته إلى الله تعالى [2] ، أي ليس هناك ما يدل على أنه من عند الله تعالى . فربما غلط أو توهم ، أو خال فتخيَّل ، ولا معصوم بعد رسول الله ﷺ .

وذكر صاحب « مسلّم الثبوت » قولاً آخر نُسب إلى عامة العلماء ، وهو أن الإلهام حُجَّة على الملهَم فقط دون غيره ، وعلَّل ذلك شارحه بقوله :

« لعل وجهه أن إلهامهم (أي الأولياء) ، وإن كان حُجَّة قاطعة ، إلا أنه لا يجب عليهم دعوة الخلق إليه ، من حيث إنه إلهام ، ولا على الخلق تصديقهم ، والحُجَّة فرع التصديق » [3] .

---

(١) إرشاد الفحول ص ٢٤٩

(٢) مسلم الثبوت مع شرحه فواتح الرحموت ، المطبوع مع المستصفى للغزالي : ٢/ ٣٧١

(٣) المصدر نفسه .

وسيأتى مزيد مناقشة لذلك .

ويبدو أن موقف النفاة الرافضين للإلهام هنا ، كان رد فعل لموقف المتصوفة الذين غلوا فى إثبات الإلهام ، وزعموا أن له حجية ثابتة ، ومصدرية مستقلة للأحكام الشرعية ، فنفى ذلك العلماء المتمسكون بالكتاب والسُّنَّة ، وأنكروه .

*

● المغالون فى إثبات الإلهام وحجيته واعتباره :

أما الفئة الثانية فهى التى غلت فى إثبات الإلهام ، وفيما له من حجية شرعية : علمية وعملية ، بحيث يُستدل به على سلامة الاعتقاد ، وسداد القول ، وصحة العمل ، واستقامة المنهج .

وهؤلاء هم المنحرفون من دعاة التصوف أو أدعيائه على الحقيقة ، وليس كل الصوفية معهم فى ذلك ، فإن الصوفية الأوائل ملتزمون بالكتاب والسُّنَّة ، كما سنبين بعد ، وإنما هؤلاء قوم لم يتحصنوا بمحكمات الشرع ، فمالت بهم رياح البدع القولية والعملية يميناً وشمالاً ، فاعتمدوا على المتشابهات ، وأعرضوا عن المحكمات ، وهذا أصل الزيغ والغلو .

*

● الإلهام ليس بحُجَّة شرعية :

وهؤلاء قد رد عليهم الأصوليون بأن الإلهام ليس بحُجَّة ، سواء فى باب المعارف والاعتقادات ، أم باب الأعمال والتعبدات ، وتظاهر على ذلك علماء أصول الدين وعلماء أصول الفقه ، وردوا على مَن زعم أنه حُجَّة ودليل شرعى ، وأبطلوا كل ما استدلوا به .

أما فى باب المعرفة والاعتقاد فيذكر « النسفى » فى « عقائده » المشهورة والمعتمدة لدى المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية ، وهى من الكتب التى كانت - ولا تزال - تدرس بالأزهر : أن أسباب العلم للخلق ثلاثة :

الحواس السليمة ، والعقل ، والخبر الصادق ، ومنه خبر الرسول المؤيَّد بالمعجزة .

وبعد أن حصر أسباب العلم اليقيني في هذه الثلاثة قال : « والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق » (١) .

وأما في باب الأعمال والتعبدات ، فيقول الإمام أبو زيد الدبوسي من أئمة الحنفية : الذي عليه الجمهور : أن الإلهام لا يجوز العمل به إلا عند فقد الحُجَج كلها ، في باب المباح ، فقيد جواز العمل به بقيدين :

الأول : ألا يوجد أي دليل شرعي في المسألة ، لا كتاب ولا سُنَّة ولا إجماع ولا قياس، ولا غيرها من الأدلة المختلف فيها .

الثاني : أن يكون ذلك في باب المباح ، أما الإيجاب أو الاستحباب ، أو التحريم أو الكراهة ، فلا يعتمد فيها على إلهام ملهَم ، ولا كشف ولي ، بل لا بد من دليل شرعي معتمد .

وسنفصل ذلك بأدلته بعد بيان موقف الربانيين المحققين من أئمة أهل السُّنَّة .

* *

● موقف الربانيين المعتدلين من علماء السُّنَّة :

بعد أن بينا موقف النفاة المنكرين للإلهام ، من علماء الأصولين : أُصول الدين وأُصول الفقه ، وبينا في مقابلتهم موقف المغالين في إثبات الإلهام والمعظمين له ، وما أضفوا عليه من حجية وقدسية ، ترتب عليها ما ذكرناه من نتائج وآثار في مجالات العقيدة والفكر والعبادة والسلوك .

ينبغي علينا هنا أن نبين موقف المتوسطين المعتدلين من ربانيي هذه الأُمَّة الذين أشار إليهم القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) العقائد النسفية مع شرحها ص ٤١ ، طبع مصطفى الحلبي .

(٢) آل عمران : ٧٩ .

وقد تبيَّن موقف هؤلاء من خلال ردهم على الغلاة والمنحرفين من المتصوفة ، فيما ذكرناه في المباحث السابقة .

ولكن لا بأس من بيان موقفهم استقلالاً ، ليزداد تأصلاً واتضاحاً .

إن هؤلاء الربانيين من دعاة « الوسطية الإسلامية » هم الذين جمعوا بين النورين : نور العقل ونور القلب ، نور العلم ونور الإيمان ، نور الفطرة ونور النبوة ، واهتدوا بصحيح المنقول وصريح المعقول ، ووفَّقوا بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية ، وردوا الفروع إلى الأصول ، والمتشابهات إلى المحكمات ، والظنيات إلى القطعيات ، فأثبتوا الإلهام والكشف والتحديث والفراسة والرؤى الصادقة بشروطها وفي حدودها ، وأقاموا الوزن بالقسط ولم يُخسروا الميزان ، ولم يطغوا فيه ، وبهذا أووا من العلم إلى ركن شديد ، واعتصموا من الدين بحبل متين : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

إن موقف أهل التوسط والاعتدال من محققي علماء السُّنَّة ، هو الذي يُعبِّر بحق عن وسطية المنهج الإسلامي ، ووسطية الأمة الإسلامية .

فهم لا يغلقون باباً من أبواب المعرفة والوعي ، فتحه الله لبعض الناس ، في بعض الأوقات ، بجوار البابين الآخرين ، من أبواب المعرفة ، وهما اللذان لهما صفة العموم والدوام .

أعني : باب الحواس ، وخصوصاً السمع والبصر ، وباب العقل ، وقد يُعبَّر عنه في القرآن الكريم بالفؤاد أو القلب ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً

(١) آل عمران : ١٠١ (٢) الإسراء : ٣٦

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1] ، فجعل هذه الثلاثة منافذ المعرفة للإنسان : السمع والأبصار للمعرفة الحسية ، والأفئدة للمعرفة العقلية .

والمعرفة « السمعية » تدخل فيها العلوم النقلية ، ومنها : علوم الدين ، فهى علوم سمعية ، وإن نقلت عن طريق القلم والكتاب .

والمعرفة « البصرية » تدخل فيها العلوم التجريبية ، لأنها تقوم على الملاحظة والتجربة والقياس ، وأساسها البصر والمشاهدة .

والمعرفة « الفؤادية » أو « القلبية » يدخل فيها المعرفة العقلية الخالصة ، عن طريق النظر والتفكير والاعتبار والاستدلال ، كما يمكن أن يدخل فيها المعرفة المباشرة عن طريق البصيرة والحدس والإلهام ، وهو ما يسمونه « المعرفة الروحية » .

ذلك أن كلمة « الفؤاد » أو « القلب » ليست مرادفة لكلمة « العقل » ، بل هى أعم وأشمل ، فقد يراد منها تلك اللطيفة المدركة العاقلة المفكرة ، ولذا توصف أحياناً بالعقل أو الفقه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [2] .

وقوله فى أهل النار : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [3] .

وقد يُراد من كلمة الفؤاد أو القلب ما يُطلق عليه الآن اسم « الروح » أو « الضمير » أو « البصيرة » أو نحو ذلك من الكلمات التى تُعبِّر عن نوع من الوعى المباشر دون الأدوات التى يستخدمها العقل المنطقى فى تحصيل معرفته .

ومهما يكن من تفسيرنا لكلمة « الأفئدة » أو « القلوب » فإن مما لا ريب فيه

---

(١) النحل : ٧٨ (٢) الحج : ٤٦ (٣) الأعراف : ١٧٩

أن فيها نوراً فطرياً أودعه الله فيها ، يزداد بالإيمان والمجاهدة والتقوى ، فيكون كما قال الله تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (١) .

كما أن الكفر والجحود والغفلة واتباع الهوى ، يعطل هذه الأجهزة المعرفية لدى الإنسان ، ويخرب صلاحيتها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢) .

وقال عن بعض الكفار الذى نزل بهم عقاب الله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ؟ (٤) .

لم يقل العلماء المعتدلون الذين اهتدوا بالكتاب والسُّنَّة بسد باب الإلهام والكشف ونور البصيرة ، وإنما أرادوا أن يُقيِّدوه بالأصول والضوابط التى تمنع دخول الوهم والكذب والغلو فيه .

وإذا كان العقليون من قديم حاولوا أن يضبطوا إنتاج العقل بقواعد « المنطق » الذى عرَّفوه بأنه « آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر » ، وبهذا يمكن الرجوع إلى هذه القواعد عند الخلاف .

وإذا كان الشرعيون قد وفَّقهم الله لوضع علم « أصول الفقه » لضبط

---

(١) النور : ٣٥ — (٢) الأعراف : ١٧٩

(٣) الأحقاف : ٢٦ — (٤) الجاثية : ٢٣

الاستدلال فيما فيه نص ، وفيما لا نص فيه ، وأسسوا بذلك علماً عظيماً لم يُعرف مثله فى حضارة من الحضارات ، وغدا مفخرة من مفاخر التراث الفكرى الإسلامى .

إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يُترك الأمر فوضى فى موضوع الكشف والإلهام ، وندع الباب مفتوحاً على مصراعيه ، لكل مَن هبَّ ودبَّ ، ممن تخيَّل فخال ، أو مَن لا يميز بين إلهام المَلَك ونفث الشيطان ، أو مَن ادعى الوصول ولم يرع الأصول ، من كل دجال يشترى الدنيا بالدين ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ؟!

هذا ما يراه الربانيون من علماء السُّنَّة ، فهم لا ينكرون أن يقذف الله فى قلب عبد من عباده نوراً يكشف له بعض المستورات والحقائق ، ويهديه إلى الصواب فى بعض المواقف والمضايق ، بدون اكتساب ولا استدلال ، بل هبة من الله تعالى ، وإلهاماً منه .

ومَن آمن بقدرة الله تعالى على كل شيء ، وآمن بالطاقة الروحية الهائلة فى الإنسان ، وآمن بأثر الإيمان والعبادة والمجاهدة فى تفجير هذه الطاقة الكامنة ، لم يستبعد أن يقع الكشف والإلهام من الله لبعض عباده المؤمنين الصادقين ، فى بعض الأحوال والأوقات ، تفضلاً منه وكرماً : ﴿ قُلْ إنَّ الفَضْلَ بيَدِ الله يُؤْتيه مَن يَشَاءُ ، واللهُ واسِعٌ عَليمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ، واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ (١) .

* *

● تحرير موضع النزاع :

فما هو إذن موضع الخلاف بينهم وبين من ذكرنا من المتصوفة أصحاب الكشف والإلهام ؟

---

(١) آل عمران : ٧٣ - ٧٤

هنا يلزمنا تحرير موضع النزاع بين الفريقين لنستبين ، ما هو متفق عليه ، وما هو مختلف فيه .

• إلهام الأنبياء وحى :

لا نزاع بين أحد من أهل الإسلام ، فى أن إلهام الأنبياء جزء من الوحى المعصوم ، وفيه جاء مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى رُوعى : أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها » [1] .

كما لا نزاع بينهم فى أن رؤيا الأنبياء وحى أيضاً ، وهى تدخل مع الإلهام فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [2] .

فقوله : ﴿ إلا وحياً ﴾ يشمل الإلهام فى اليقظة ، والرؤيا فى المنام .

وقد ذكر لنا القرآن رؤيا إبراهيم فى شأن ذبح ابنه وكيف اعتبر ما رآه فى المنام أمراً من الله تعالى ، وكذلك الابن : ﴿ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [3] .

* *

• أثر التقوى والمجاهدة فى الهداية والإلهام :

ولا نزاع فى أن الإيمان والعبادة والتقوى ، ومجاهدة النفس ، لها أثرها فى تنوير العقل ، وهداية القلب ، والتوفيق إلى إصابة الحق فى الأقوال ،

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير . (٢) الشورى : ٥١ (٣) الصافات : ١٠٢

والسداد فى الأعمال ، والخروج من مضايق الاشتباه إلى باحات الوضوح ، ومن اضطراب الشك إلى ثبات اليقين .

ولا نزاع كذلك فى أن يكشف الله لبعض المتقين من عباده من حقائق العلم ، وأنوار المعرفة ، فى فهم كتابه أو سُنَّة نبيه ، بمحض الفيض الإلَهى والفتح الربانى - ما يلهث كثيرون ليحصلوا عليه بالمذاكرة والتحصيل ، فلا يظفرون بما يدانيه ، بشرط أن يحصلوا الأدوات الضرورية لفهم العلم .

وهذا ما جعل كثيراً من كبار العلماء المؤلفين فى التفسير والحديث والفقه وغيرها ، يجعلون فى عناوين كتبهم كلمات مثل : الفتح ، والفيض . . . ونحوهما (١) .

ولا نزاع كذلك فى أن يوهب بعض الناس من صدق الفراسة وقوتها ما يستطيع به أن يكتشف شخصية المرء يلقاه بنظرة إليه ، أو كلمة يسمعها منه ، أو يقرأ أفكاره ، أو يعرف بعض ما يجول بنفسه .

وهى موهبة فطرية لدى بعض الناس تقويها الرياضة والمجاهدة ، وتنميها تقوى الله تعالى ، ويصقلها الإيمان واليقين بالله تعالى وبالدار الآخرة ، حتى إن المؤمن لتصدق فراسته ، كأنما ينظر بنور الله ، وينطق بلسان القَدَر ، ويبصر الغيب من وراء ستر رقيق .

ولابن القيم هنا كلام جيد فى « مدارج السالكين » يجب أن يُقرأ ويراجع (٢) .

* *

---

(١) مثل « فتح البارى » لابن حجر ، و« فتح القدير » لابن الهمام في الفقه ، و «فتح القدير » للشوكانى فى التفسير ، و« فتح العزيز » للرافعى ، و« فتح الملك العلام» لصديق حسن خان ، و« فيض القدير » للمناوى ، و« فيض البارى » للكشميرى وغيرها .

(٢) مدارج السالكين : ١/١٢٩ - ١٣١

● ابن تيمية لا ينكر الإلهام الناشيء عن الإيمان والتقوى :

ومن الناس مَن يظن أن شيخ الإسلام ابن تيمية يجحد كل أثر للإيمان والتقوى والمجاهدة الروحية فى نفس الإنسان المسلم ، فلا تفيده نوراً يبصر به فى الظلمات ، ولا فرقاناً يميز به بين المتشابهات ، ولا هداية تنحل بها العقد والمشكلات ، وأن شأن المؤمن العابد التقى المحاسب لنفسه ، المراقب لربه ، المخلص فى عمله ونيته ، كشأن العاصى المسرف على نفسه ، أو الغافل عن ذكر ربه ، الناسى لأمر آخرته ، إذا استويا فى الذكاء والتحصيل !

وربما يؤيد هذا الظن ما قد يلحظه بعضهم من جمود وتزمت فى فريق من الحرفيين الذين ينسبون أنفسهم أو ينسبهم الناس إلى مدرسة ابن تيمية السَلَفية .

وكيف يُتصور من هذا الإمام الذى قضى عمره كله فى رحاب كتاب الله تعالى ، وفى ظلال سُنَّة رسول الله ﷺ ، ومع هَدْى خير قرون هذه الأُمة ، وأفضل أجيالها علماً وعملاً وإيماناً وتقوى ، وإخلاصاً وجهاداً فى الله ، أن يجحد أثر الإيمان والعبادة والمجاهدة فى هداية الإنسان المؤمن التقى إلى الحق والسداد ، وهو يجد بين يديه الآيات والأحاديث والآثار تنطق بهذا المعنى بكل بيان وجلاء ؟!

وكيف يجحد ذلك أو يجهله وهو فى حياته وسلوكه يجسد صورة مشرقة للعالِم الربانى الذى جعل علمه وعمله ، وصلاته ، ونُسُكه ومحياه ومماته لله رب العالَمين ، ففاضت الحكمة من قلبه على لسانه وقلمه ، ومنحه الله من النور والفرقان ما لم يُمنح إلا للصفوة من أولياء الله تعالى ؟

وكثيراً ما ظُلِم شيخ الإسلام وأصحابه ، ونُسِب إليهم من الأفكار والمفاهيم والاتجاهات ما لم يقولوا به ، وما يُكذِّبه تراثهم وسيرتهم العلمية والعملية ، وما ظُلِموا إلا بسبب هؤلاء المحجوبين المطموسين اليابسين ، من زوامل النقل ، وأسارى الرسم والشكل ، الذين شُغِلوا بالظاهر عن الباطن ، وبالصور عن الحقائق . الذين حُرِموا عمق الحاسة الروحية ، ولم يوجهوا عنايتهم لأعمال

القلوب ، ومقامات الإيمان والإحسان ، وتزكية الأنفس ، ومجاهدتها فى الله ، حتى يهديها سُبُله ، ويذيقها حلاوة الإيمان .

وليس أدل على منهج ابن تيمية وموقفه فى هذه القضية من نقل كلامه نفسه بنصّه رضى الله عنه .

يقول فيما نُقِل فى مجموع فتاواه ورسائله :

« القلب المعمور بالتقوى إذا رجَّح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعى . قال : فمتى ما وقع عنده وحصل فى قلبه ما يظن معه أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى لله ورسوله ، كان هذا ترجيحاً بدليل شرعى ، والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقاً إلى الحقائق مطلقاً أخطأوا ، فإذا اجتهد العبد فى طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجَّح أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة ، والظواهر والاستصحابات الكثيرة ، التى يحتج بها كثير من الخائضين فى المذاهب والخلاف وأصول الفقه .

وقد قال عمر بن الخطاب : اقربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ؛ فإنهم تتجلى لهم أمور صادقة . وحديث مكحول المرفوع : « ما أخلص عبد العبادة لله تعالى أربعين يوماً إلا أجرى الله الحكمة على قلبه ، وأنطق بها لسانه » . وفى رواية : « إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » [1] . وقال أبو سليمان الدارانى : إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت فى الملكوت ، ورجعت إلى أصحابها بطرف الفوائد ، من غير أن يؤدى إليها عالِم علماً .

وقد قال النبى ﷺ : « الصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء » [2]

---

(١) ذكره فى الجامع الصغير بلفظ : « مَن أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ، ونسبه إلى أبى نعيم فى الحلية من حديث أبى أيوب . قال فى « فيض القدير » : أورده ابن الجوزى فى الموضوعات ، وتعقبه السيوطى بأن الحافظ العراقى فى تخريج « الإحياء » اقتصر على تضعيفه !

(٢) الحديث فى صحيح مسلم عن أبى مالك الأشعرى ، وهو من أحاديث الأربعين النووية .

ومَن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها ؟ ولا سيما الأحاديث النبوية ، فإنه يعرف ذلك معرفة تامة ؛ لأنه قاصد العمل بها ؛ فتتساعد في حقه هذه الأشياء مع الامتثال ومحبة الله ورسوله ، حتى إن المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحاً لا تصريحاً :

والعين تعرف من عيني محدِّثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

إنارة العقل مكسوف بطوع هوىً ... وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا

وفي الحديث الصحيح : « لا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » [1] .

ومَن كان توفيق الله له كذلك فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعَّالة ؟ وإذا كان الإثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان ، فكيف حال مَن الله سمعه وبصره وهو في قلبه ؟ وقد قال ابن مسعود : الإثم حوَّاز القلوب . وقد قدَّمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة ، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس ، ويطمئن إليه القلب .

وأيضاً فإن الله فطر عباده على الحق ، فإذا لم تستَحِل الفطرة ، شاهدت الأشياء على ما هي عليه ، فأنكرت منكرها ، وعرفت معروفها . قال عمر : الحق أبلج ، لا يخفى على فطن .

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منوَّرة بنور القرآن ، تجلَّت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا ، وانتفت عنها ظلمات الجهالات ، فرأت الأمور عياناً مع غيبها عن غيرها .

---

(١) هو في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة .

وفي السنن والمسند وغيره عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، وفي السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو من فوق الصراط ، والصراط المستقيم هو الإسلام ، والستور المرخاة حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، فإذا أراد العبد أن يفتح باباً من تلك الأبواب ناداه المنادى : يا عبد الله ؛ لا تفتحه ، فإنك إن فتحته تلجه ، والداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن » ، فقد بيَّن في هذا الحديث العظيم - الذى مَن عرفه انتفع به انتفاعاً بالغاً إن ساعده التوفيق ، واستغنى به عن علوم كثيرة - أن في قلب كل مؤمن واعظاً ، والوعظ هو الأمر والنهي ، والترغيب والترهيب .

وإذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأُمور وانكشفت ، بخلاف القلب الخراب المظلم ، قال حذيفة بن اليمان : إن في قلب المؤمن سراجاً يزهر ، وفي الحديث الصحيح : « إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن ، قارىء وغير قارىء » [1] ، فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره ، ولا سيما في الفتن ، وينكشف له حال الكذّاب الواضع على الله ورسوله ، فإن الدجال أكذب خلق الله ، مع أن الله يُجرى على يديه أُموراً هائلة ، ومخاريق مزلزلة ، حتى إن مَن رآه افتتن به ، فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها .

وكلما قوى الإيمان في القلب قوى انكشاف الأُمور له ، وعرف حقائقها من بواطلها ، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف ، وذلك مثل السراج القوى والسراج الضعيف في البيت المظلم ، ولهذا قال بعض السلَف في قوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ [2] ، قال : هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن

---

(١) متفق عليه من حديث حذيفة وأبي مسعود معاً .   (٢) النور : ٣٥

لم يسمع فيها بالأثر ، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور . فالإيمان الذى فى قلب المؤمن يطابق نور القرآن ، فالإلهام القلبى تارة يكون من جنس القول والعلم ، والظن أن هذا القول كذب ، وأن هذا العمل باطل ، وهذا أرجح من هذا ، أو هذا أصوب .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : « قد كان فى الأمم قبلكم مُحدَّثون ، فإن يكن فى أُمَّتى منهم أحد فعمر » ، والمحدَّث : هو المُلهَم المُخاطَب فى سِرِّه ، وما قال عمر لشىء : إنى لأظنه كذا وكذا إلا كان كما ظن ، وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه .

وأيضاً فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقيناً وظناً ، فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأوْلى ، فإنه إلى كشفها أحوج ، فالمؤمن تقع فى قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها فى الغالب ، فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعانى القائمة بقلبه ، فإذا تكلم الكاذب بين يدى الصادق عُرِف كذبه من فحوى كلامه ، فتدخل عليه نخوة الحياء الإيمانى فتمنعه البيان ، ولكن هو فى نفسه قد أخذ حذره منه ، وربما لوَّح أو صرَّح به خوفاً من الله ، وشفقة على خلق الله ، ليحذروا من روايته أو العمل به .

وكثير من أهل الإيمان والكشف يُلقى الله فى قلبه أن هذا الطعام حرام ، وأن هذا الرجل كافر ، أو فاسق ، أو ديوث ، أو لوطى ، أو خمَّار ، أو مغن ، أو كاذب ، من غير دليل ظاهر ، بل بما يُلقى الله فى قلبه .

وكذلك بالعكس ، يُلقى فى قلبه محبة لشخص ، وأنه من أولياء الله ، وأن هذا الرجل صالح ، وهذا الطعام حلال ، وهذا القول صدق ، فهذا وأمثاله لا يجوز أن يُستبعد فى حق أولياء الله المؤمنين المتقين .

وقصة الخضر مع موسى هى من هذا الباب ، وأن الخضر علم هذه

الأحوال المعَّينة بما أطلعه الله عليه ، وهذا باب واسع يطول بسطه ، قد نبهنا فيه على نكت شريفة تطلعك على ما وراءها » [(١)] . أ هـ .

وما قاله شيخ الإسلام هنا ، أكده وأيَّده تلميذه المحقق الإمام ابن القيم - رحمهما الله - فى عدد من كتبه ، وخصوصاً فى كتابه الشهير « مدارج السالكين » .

* *

● شرط الاعتبار بالكشف والإلهام والرؤيا :

كما لا نزاع فى الإلهام والكشف فى باب الكرامات والخوارق التى يُكرم الله بها بعض أوليائه المتقين ، فيُقرِّب لهم البعيد ، أو يُكثِّر على أيديهم القليل ، أو يكشف لهم بعض المستور من غيوب المستقبل ، أو مكنونات الصدور ، أو خفايا الأمور ، أو يُذلِّل لهم بعض الصعاب ، بغير الطريق المعتاد ، إلى غير ذلك مما كثرت فيه الحكايات ، وتناقلته الروايات ، مما لا يخلو بعضه من صحة وثبوت ، وما لا يسلم بعضه أيضاً من مبالغة أو اختلاق .

ولكن المبدأ مُسلَّم به وبنتائجه بشرطه ، وهو ألا يخرم قاعدة دينية ثابتة ، ولا حكماً شرعياً متفقاً عليه .

وهو ما بيَّنه وفصَّله بأدلته وأمثلته الإمام الشاطبى فى كتاب المقاصد من «الموافقات » ، فليُرجع إليه .

فقد بيَّن أن ما يخرم قاعدة شرعية ، أو حكماً شرعياً ليس بحق فى نفسه بل هو إما خيال ، أو وهم ، وإما من إلقاء الشيطان ، وقد يخالطه ما هو حق وقد لا يخالطه ، وجميع ذلك لا يصلح اعتباره ، من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع ، فإن التشريع الذى جاء به رسول الله ﷺ عام لا خاص ،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٢/٤٢ - ٤٧

لا ينخرم أصله ، ولا ينكسر له اطراد ، ولا يُستثنى من الدخول تحت حكمه مُكلَّف .

وإذا كان كذلك فكل ما جاء من هذا القبيل الذى نحن بصدده مضاداً لما تمهد فى الشريعة ، فهو فاسد باطل .

قال الشاطبى : « ومن أمثلة ذلك مسألة سئل عنها ابن رشد فى حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة فى أمر ، فرأى الحاكم فى منامه أن النبى ﷺ قال له : « لا تحكم بهذه الشهادة فإنها باطل » ، فمثل هذا من الرؤيا لا معتبر بها فى أمر ولا نهى ، ولا بشارة ، ولا نذارة ، لأنها تخرم قاعدة من قواعد الشريعة ، وكذلك سائر ما يأتى من هذا النوع . وما روى : « أن أبا بكر رضى الله عنه أنفذ وصية رجل بعد موته برؤيا رؤيت » ، فهى قضية عَيْن لا تقدح فى القواعد الكلية لاحتمالها ، فلعل الورثة رضوا بذلك ، فلا يلزم منها خرم أصل .

وعلى هذا لو حصلت له مكاشفة بأن هذا الماء المعيَّن مغصوب أو نجس أو أن هذا الشاهد كاذب ، أو أن المال لزيد وقد تحصَّل بالحُجَّة لعمرو ، أو ما أشبه ذلك ، فلا يصح له العمل على وفق ذلك ما لم يتعين سبب ظاهر ، فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم ، ولا ترك قبول الشاهد ، ولا الشهادة (١) بالمال لزيد على حال . فإن الظواهر قد تعيَّن فيها بحكم الشريعة أمر آخر ، فلا يتركها اعتماداً على مجرد المكاشفة أو الفراسة ، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية ، ولو جاز ذلك لجاز نقض الأحكام بها ، وإن ترتبت فى الظاهر موجباتها ، وهذا غير صحيح بحال . فكذا ما نحن فيه .

وقد جاء فى الصحيح : « إنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل بعضكم أن يكون

---

(١) لعلها : ولا الحكم .

ألحن بحُجّته من بعض ، فأحكم له على نحو ما أسمع منه » . . الحديث[1] ، فقيَّد الحكم بمقتضى ما يسمع وترك ما وراء ذلك . وقد كان كثير من الأحكام التى تجرى على يديه يطلع على أصلها وما فيها من حق وباطل ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يحكم إلا على وفق ما سمع ، لا على وفق ما علم ، وهو أصل فى منع الحاكم أن يحكم بعلمه »[2] . أ هـ .

وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يعلم من دخائل المنافقين وبواطن كفرهم ما يعلم ، ولكنه لم يعاملهم وفقاً لما كشف الله له من بواطنهم ، بل عاملهم حسب ظواهرهم ، وأجرى عليهم أحكام الإسلام ، ومنحهم حقوق المسلمين فى الحياة وبعد الممات .

وبهذا رد على مَن أراد من الصحابة أن يعاملهم معاملة الكفار المجاهرين ، فقال : « أخشى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » !

وهكذا أُمِرنا أن نحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، ولم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس .

* *

● فى هذه الأمور يتحدد النزاع :

إذا كانت المدرسة السلَفية - وعلى رأسها شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم - لا ترفض الكشف الصحيح ، والفراسة الصادقة ، والرؤيا الصالحة ، وكان هذا موقف الربانيين الراسخين من علماء الأمة كالشاطبى وغيره ، فأين يكون موضع النزاع بين المتصوفة وغيرهم ؟

---

(١) بقيته : « فمن قضيتُ له بشيء من حق أخيه فلا يأخذنه فإنما أقطع له قطعة من النار » أخرجه الشيخان .

(٢) الموافقات : ٢/٢٦٦ - ٢٦٨

نستطيع أن نحدد مواضع النزاع فى ستة أُمور :

١ - زعمهم أن إلهامهم أو كشفهم دليل شرعى ، يؤخذ منه الحكم بالحِلّ أو الحُرْمة أو الكراهة أو الوجوب ، أو الاستحباب .

بل قد يجعلون إلهامهم حُجَّة على الشرع نفسه ، فإذا حرَّم الشرع ، وحلَّل إلهامهم أو العكس ، فإن إلهامهم هو الحُجَّة المعتمدة ، والدليل المرجح .

٢ - ومعنى هذا أنهم يُضفون على إلهاماتهم وكشوفهم العصمة والقداسة ، فهى الصواب الذى لا يحتمل الخطأ بحال ، على خلاف أقوال الأئمة المجتهدين التى تحتمل الخطأ والصواب .

٣ - تحقيرهم للعلم الشرعى ، علم الكتاب والحديث ، والفقه ، وغيرها ، الذى اعتبر طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وادعاؤهم أنهم لا حاجة لهم إلى أخذ العلم من أسبابه ووسائطه النقلية ، فهم يأخذونه مباشرة عن الله تعالى : « حدَّثنى قلبى عن ربى » .

٤ - تفرقتهم بين « الشريعة » و« الحقيقة » ، أو بين « العلم » الذى يأتى به « النص » و« المعرفة » التى يأتى بها « الكشف » ، واعتبار الأولى من نصيب العوام والأخرى من حظ الخواص .

٥ - اعتبارهم الكشف هو غاية الغايات التى يسعون إليها ، ويحرصون عليها كأنما أصبحت عبادتهم ومجاهدتهم ، ابتغاء الكشف لا ابتغاء وجه الله .

٦ - اتخاذهم إلى هذا الكشف طرقاً مبتدعة لم يجىء بها كتاب ولا سُنَّة، ولا عمل بها سَلَف الأُمة .

ويمكن إدماج الأمرين الخامس والسادس ، فتكون المواضع خمسة .

وسنفصل القول فى هذه الأمور الستة - أو الخمسة - فى المباحث التالية .

* * *

١ - دعوى حجية الإلهام فى الأحكام الشرعية

● حجج المحققين من أهل السُّنَّة :

ذكرنا أن رأى جمهور علماء الأمة : أن الإلهام لا يجوز العمل به إلا عند فقد الحجج كلها فى باب المباح .

قال الإمام الدبوسى : وحُجَّة أهل السُّنَّة - يعنى فى عدم الاستدلال بالإلهام فى الأحكام - الآيات والنصوص الدالة على اعتبار الحُجَّة :

يعنى مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) ، ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٣) . . . وغيرها .

قال : والحث على التفكر فى الآيات ، والاعتبار ، والنظر فى الأدلة ، وذم الأمانى ، والهواجس والظنون ، وهى كثيرة مشهورة .

(ب) وأضاف إلى ذلك : بأن الخاطر قد يكون من الله ، وقد يكون من الشيطان ، وقد يكون من النفس ، وكل شىء احتمل ألا يكون حقاً لم يوصف بأنه حق (٤) .

(جـ) ومما يؤيد ذلك ما جاء فى الحديث المشهور : « إنَّ للمَلَك لمة بقلب ابن آدم ، وللشيطان لمة » (٥) ، فكيف يستطيع غير المعصوم أن يميز بين لمة الملك ولمة الشيطان ؟

---

(١) البقرة : ١١١ (٢) الأنعام : ١٤٣ (٣) الأنعام : ١٤٨

(٤) نقله فى فتح البارى : ١٦/ ٤٤ ، طبع مصطفى الحلبى .

(٥) عزاه فى الجامع الصغير إلى الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود ، وقال الترمذى : حسن غريب . (فيض القدير : ٢/ ٥٠٠) .

وفرَّق بعضهم بينهما : بأن الخاطر الذى يكون من الحق يستقر ولا يضطرب، والذى يكون من الشيطان يضطرب ولا يستقر ، ولكن هذه التفرقة نفسها تحتاج إلى دليل شرعى ، فالأولى ما قاله ابن السمعانى : إن كل ما استقام على الشريعة المحمدية ، ولم يكن فى الكتاب والسُّنَّة ما يرده ، فهو مقبول ، وإلا فمردود ، يقع من حديث النفس ، ووسوسة الشيطان .

ثم قال : ونحن لا ننكر أن الله يكرم عبده بزيادة نور منه ، يزداد به نظره ، ويقوى به رأيه ، وإنما ننكر أن يرجع إلى قلبه بقول لا يعرف أصله ، ولا نزعم أنه حُجَّة شرعية ، وإنما هو نور يختص الله به مَن يشاء من عباده ، فإن وافق الشرع كان الشرع هو الحُجَّة (١) . أ هـ .

وأضاف العلامة الفنارى - الحنفى - فى كتابه « فصول البدائع » فى أصول الفقه - أربعة أوجه فى إبطال حجية الإلهام :

أولاً : أنه معارض بالمثل ، (بمعنى : أن يحتج زيد بإلهامه ، فيعارضه عمرو بإلهام مثله ، ولا مزية لأحدهما على الآخر) .

ثانياً : أنه ملتبس بالهواجس والوساوس ، فلا يتبع إلا إذا كان على وفق الحجج الشرعية ، كيف وإذا وجب رد الحديث المخالف لكتاب الله ، فرد غيره أولى !

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٢) ، ونحوه : (أى من الآيات التى تدعو إلى طلب البرهان ، وتحث على النظر والتدبر ، وترفض تقليد الآباء ، وطاعة الكبراء ونحوها) .

رابعاً : دلالة الإجماع على عدم جواز (قبول) قول الرسول (أىّ

---

(١) فتح البارى : ١٦/٤٤ ، طبع مصطفى الحلبى .

(٢) الإسراء : ٣٦

رسول) إلا بعد إظهار المعجزة ، وإلا لاشتبه النبى بالمتنبىء وقبول المتنبىء كفر [1] . أ هـ .

* *

● شبهات القائلين بحجية الإلهام فى الأحكام الشرعية :

ذكر الدبوسى عن بعض المبتدعة أن الإلهام حُجَّة فى الشرع ، وكذلك نقل صاحب « فصول البدائع فى أصول الشرائع » ، والزركشى فى « البحر »، والشوكانى فى « إرشاد الفحول » وغيرهم .

ومجمل ما استند إليه هؤلاء المبتدعة ما يأتى :

١ - إن الله تعالى يقول : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [2] ، فبيَّن أن النفوس مُلهَمة .

٢ - ويقول : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ... ﴾ [3] ، أى ألهمها حتى عرفت مصالحها ، فيؤخذ منه مثل ذلك للآدمى بطريق الأولى .

٣ - ما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، ومَن ينظر بنور الله لا يخطىء ولا يضل .

٤ - قوله صلى الله عليه وسلم لوابصة : « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » ، فجعل شهادة قلبه حُجَّة مُقدَّمة على الفتوى .

٥ - حديث : « قد كان فيما قبلكم من الأمم مُحدَّثون » ، والمُحدَّث كما هو معلوم : الذى يُحَدَّث فى سِرِّه وقلبه بالشىء ، فيكون كما حُدِّث به . وقد يكون ذلك بخطاب من الملأ الأعلى ، يسمع فيه صوتاً أو لا يسمع ، أو بصورة

---

(١) فصول البدائع فى أصول الشرائع - للعلامة الفنارى : ٢/٣٩١

(٢) الشمس : ٨ (٣) النحل : ٦٨

يراها بعين بصره أو قلبه ، أو يكون إعلاماً من الله له بلا واسطة ، فينكشف له المجهول ، ويتجلى له المغيَّب والمستور ، تكريماً من الله لأوليائه وأصفيائه ، كما كرَّم أنبيائه بالوحى والمعجزة .

٦ - القياس على الرؤيا الصادقة ، وبخاصة رؤيا الرسول ﷺ ، فقد أخذ بعضهم من حديث : « إن الشيطان لا يتمثَّل بى » : أنَّ مَن تمثلت صورته - صلى الله عليه وسلم - فى خاطره من أرباب القلوب ، وتصوَّرت له فى عالَم سره : أنه يخاطبه ويكلمه ، فإن ذلك يكون حقاً ، بل ذلك أصدق من مرأى غيرهم ، لما مَنَّ الله به عليهم من تنوير قلوبهم [(١)] .

٧ - قصة العبد الصالح الذى ذكره الله فى سورة الكهف ، والمعروف باسم الخضر عليه السلام ، مع كليم الله موسى ، أحد أُولى العزم من الرسل ، وقد أمره الله تعالى أن يتبع الخضر فى إلهاماته ، وإن خالفت ظاهر الشرع ، وقد اعترض عليه موسى فى مواقف ثلاثة لا يتفق تصرفه فيها مع أحكام الشريعة الظاهرة ، وكان الحق مع الخضر فى المسائل الثلاث ، كما بيَّن ذلك القرآن الكريم ، وذلك أن موسى كان معه علم الظاهر ، وكان مع الخضر علم الباطن ، وهو « علم لَدُنِّى » يُعَلِّمه الله مَن يشاء من عباده ، كما قال تعالى عن الخضر : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ [(٢)] .

* *

● الرد على هذه الشبهات :

ولا حُجَّة فى شىء مما استند إليه هؤلاء :

١ - أما آية : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فلها معنيان :

الأول : أن الاستعداد للفجور والتقوى أمر ركزه الله فى الفطرة ، فالإنسان قد خُلِق مزوَّداً باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال ، بحكم ازدواج طبيعته وخَلْقه من طين الأرض ونفخة الروح .

---

(١) فتح البارى : ١٦/ ٤٤ ، طبع مصطفى الحلبى .   (٢) الكهف : ٦٥

والثانى : أن معنى : « ألهمها » بيّن لها ، وعرّفها إياهما ، بحيث تُميّز رشدها من ضلالها ، كما جاء ذلك عن مُفسّرى السَلَف [1] ، والآية على ذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [3] .

على أن الإلهام فى الآية إلهام عام لكل نفس ، والإلهام الذى يحتجون به وله إلهام خاص بأرباب القلوب ، كما يقولون ، فلا دليل فى الآية ، ولا شبه دليل .

٢ - وأما آية : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ فإن الله يُلهم كل كائن حى ما تقوم به حياته ، وما يهتدى به إلى بقائه وحاجته كما قال تعالى : ﴿ الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [4] .

وقد ألهم الله تعالى الدواب والطيور والحشرات ، ما تُدبِّر به أمر نفسها ونوعها ، وهذا من دلائل ربوبيته سبحانه لكل شىء . والإنسان لم يُحرم هذا النوع من الهداية والإلهام ، وإلا فمَن ألهم الطفل - منذ يولد - كيف يلتقم ثدى أمه ؟ ومَن علّمه كيف يزرع ويصنع ، وكيف يستفيد من تجارب غيره ؟ فأما الاستدلال بالآية على أن بعض الناس يُلهَم ويُحدَّث بحيث يُعَد إلهامه حُجَّة فى الشرع ، فلا .

٣ - وأما حديث : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » فهو لم يصل إلى درجة الصحة التى يُحتج بها [5] ، وعلى التسليم بصحته ، فمعنى

---

(١) انظر روح المعانى : ٣٠/١٤٣ (٢) البلد : ١٠

(٣) الإنسان : ٣ (٤) طه : ٥٠

(٥) رواه الترمذى عن أبى سعيد واستغربه ، وكذا البخارى فى التاريخ ، ورواه الطبرانى وابن عدى والحكيم عن أبى أمامة ، وابن جرير فى تفسيره عن ابن عمر ، قال السخاوى ، بعد ما ساق هذه الطرق : وكلها ضعيفة ، وفى بعضها ما هو متماسك لا يليق مع وجوده الحكم على الحديث بالوضع ، وهو بهذا يرد على ابن الجوزى حيث حكم على الحديث بالوضع . قال المناوى : وحكم السخاوى على الكل بالضعف غير صواب ، فقد قال الهيثمى : إسناد الطبرانى حسن ، وذكر المؤلف - يعنى السيوطى =

أنه ينظر بنور الله : صدق نظره فى الناس والحوادث ، فهو قد يرى شخصاً لأول مرة فيشك فيه ، ويظهر ذلك صحيحاً وتُصدِّق الوقائع نظره .

وقد قال أحد الأعراب : إنى إذا نظرت إلى الرجل من قفاه عرفت خُلُقه .

قيل له : فإذا رأيت وجهه ؟

قال : ذاك كتاب أقرؤه !

فهذه فراسة فطرية ، وهناك فراسة تُكتسب بالتعلم والتحصيل ، كما نقلنا ذلك من قبل عن الراغب الأصفهاني .

على أنَّا لا ننكر أن للإيمان والعبادة والتقوى والمجاهدة آثارها فى جلاء مرآة النفس ، وصدق فراستها وحدسها ، فهذا ما قامت عليه الأدلة ، وما نقلناه تأييده عن ابن تيمية وينبغى أن يكون موضع اتفاق ، إنما الخلاف فى الاحتجاج بالفراسة ونحوها على الأحكام الشرعية .

* *

● حديث : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » :

وأما حديث وابصة : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » [1] وما فى معناه[2]، والاستدلال به على أن فتوى القلب مقدَّمة على فتوى المفتى بحكم الشرع ، فهو استدلال مردود ، وتحريف للكلم عن مواضعه .

= فى « الدرر » : أن الترمذى خرَّجه من حديث ابن عمر وثوبان ، بزيادة : «وينطق بتوفيق الله » ، وذكر فى تعقيبات الموضوعات : أن الحديث حسن صحيح . (فيض القدير : ١/ ١٤٤) . وذكر الألبانى الحديث فى ضعيف الجامع الصغير ، فوافق السخاوى .

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٢٨) والدارمى (٢/ ٢٤٥ و ٢٤٦) فى مسنديهما ، والبخارى فى التاريخ وأبو يعلى (١٨٥٦) ، (١٨٥٧) والطبرانى (٢٢/ ٤٠٣) ، وحسَّنه النووى فى رياض الصالحين وفى الأربعين (الحديث السابع والعشرون) : ٢/ ٩٣ ط . الرسالة ، وتبعه السيوطى فرمز له بالحسن فى جامعه الصغير وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع .

(٢) مثل حديث أبى ثعلبة الخشنى : قلت يارسول الله ، أخبرنى ما يحل لى ، وما يحرم على ؟ فقال : « البر : ماسكنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب . والإثم : مالم تسكن إليه النفس ، ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون » رواه الإمام أحمد (٤/ ١٩٤) وجوَّد إسناده ابن رجب فى الجامع (٢/ ٩٥) . =

أولاً : لأن الحديث - كما نقل المناوى عن حُجَّة الإسلام - لم يردّ كل أحد لفتوى نفسه ، وإنما ذلك لوابصة فى واقعة تخصه [1] .

أى أن الحديث لم يجئ بلفظ عام ، بحيث تؤخذ منه قاعدة عامة ، بل جاء فى واقعة معينة لشخص معيّن ، ووقائع الأعيان لا عموم لها ، كما هو مقرر فى الأصول .

ثانياً : على فرض العموم ، فموضع هذا فيما لا نص فيه ولا حُجَّة شرعية ، وإلا وجب اتباع الشرع ، قال تعالى : ﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ [2] ، وقال سبحانه : ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [3] ، فكيف يوجب الله تعالى سؤالهم ثم نترك أجوبتهم وفتاواهم إلى فتاوى قلوبنا ؟

وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [4] ، ولم يقل : ردوه إلى خواطركم وأحاديث قلوبكم .

ثالثاً : أن المفتى يبنى فتواه على ظاهر الحال كما يعرضه له السائل ، وقد يكون هناك أمور خفية لا يَطَّلع عليها ، لعله لو عرفها لغيّر فتواه . والمستفتى هو الذى يعرفها ، ولذلك تظل نفسه قلقة غير مطمئنة بما أُلقى إليه من فتوى ، ففتوى المفتى هنا مثل قضاء القاضى ، الذى يحكم بالظاهر ، ويقضى على نحو ما يسمع ، ولكنه لا يجعل الحرام حلالاً لمن استقضاه إذا كان ألحن بحُجَّته من خصمه صاحب الحق .

وبهذا يكون الاستدلال بالحديث على حجية الخواطر والإلهامات فى مواجهة أدلة الشرع ، استدلالاً باطلاً .

= ومثل حديث أبى أمامة قال : قال رجل : يارسول الله ، مالإثم ؟ قال : « إذا حال فى صدرك شىء فدعه » قال ابن رجب : خرجه الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه واسناده جيد على شرط مسلم . المصدر السابق .

وأقوى من ذلك كله : حديث النواس بن سمعان عند مسلم (٢٥٥٣) وفيه : «والإثم: ما حاك فى نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

(١) فيض القدير : ١/ ٤٩٥ (٢) الأعراف : ٣

(٣) النحل : ٤٣ (٤) النساء : ٥٩

يقول العلامة ابن رجب الحنبلي في شرح حديث وابصة « استفت قلبك » :

« فدل حديث وابصة وما في معناه على الرجوع إلى القلوب عند الاشتباه ، فما سكن إليه القلب ، وانشرح إليه الصدر ، فهو البرُّ والحلال ، وما كان خلاف ذلك فهو الإثم والحرام ، وقوله في حديث النَّواس بن سمعان : « الإثم ما حاك في الصدر ، وكرهت أن يَطَّلع عليه الناس » إشارة إلى أن الإثم ما أثر في الصدر حرجاً وضيقاً وقلقاً واضطراباً ، فلم ينشرح له الصدر، ومع هذا فهو عند الناس مستنكر بحيث ينكرونه عند اطلاعهم عليه ، وهذا أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه ، وهو ما استنكره الناس على فاعله وغير فاعله . ومن هذا المعنى قول ابن مسعود رضى الله عنه : ما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح[1] .

وقوله في حديث وابصة وأبي ثعلبة : « وإن أفتاك المفتون » يعني أنَّ ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم ، فهذه مرتبة ثانية ، وهو أن يكون الشيء مستنكراً عند فاعله دون غيره ، وقد جعله أيضاً إثماً ، وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح صدره للإيمان ، وكان المفتي يفتي له بمجرد ظن ، أو ميل إلى هوى ، من غير دليل شرعي ، فأما ما كان مع المفتي به دليل شرعي ، فالواجب على المستفتي الرجوع إليه ، وإن لم ينشرح له صدره، وهذا كالرخص الشرعية مثل الفطر في السفر والمرض ، وقصر الصلاة في السفر ونحو ذلك ، مما لا ينشرح به صدور كثير من الجُهَّال، فهذا لا عبرة به.

وقد كان النبي ﷺ أحياناً يأمر أصحابه بما لا تنشرح به صدور بعضهم فيمتنعون من فعله ، فيغضب من ذلك ، كما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة[2] ، فكرهه مَن كره منهم ، وكما أمرهم بنحر هَدْيهم والتحلل من عمرة الحديبية فكرهوه ، وكرهوا مفاوضته لقريش على أن يرجع من عامه ، وعلى أن مَن أتاه منهم يرده إليهم [3] .

---

(١) أورده الهيثمي في الحج (١/ ١٧٧ ، ١٧٨) وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون . وصححه الحاكم (٣/ ٧٨ ، ٧٩) ووافقه الذهبي .

(٢) روى ذلك عنه صلى الله عليه وسلم أربعة عشر من أصحابه ، ذكرهم في (زاد المعاد) وخرج أحاديثهم محققه حفظه الله فانظره (٢/ ١٧٨ ، ١٨٦) ط.الرسالة.بيروت .

(٣) انظر الخبر مطولاً في صحيح البخاري مع الفتح (٢٧٣١ و ٢٧٣٢) .

وفي الجملة .. فما ورد النص به ، فليس للمؤمن إلا طاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [1] ، وينبغي أن يتلقى ذلك بانشراح الصدر والرضا ، فإن ما شرعه الله ورسوله يجب الإيمان والرضا به والتسليم له ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [2] .

وأما ما ليس فيه نص من الله ولا رسوله ، ولا عمن يُقتدى بقوله من الصحابة وسَلَف الأمة ، فإذا وقع في نفس المؤمن المطمئن قلبه بالإيمان ، والمنشرح صدره بنور المعرفة واليقين منه شيء ، وحَكَّ في صدره بشبهة موجودة ، ولم يجد مَن يفتي فيه بالرخصة ، إلا مَن يخبر عن رأيه ، وهو ممن لا يوثق بعلمه وبدينه ، بل هو معروف باتباع الهوى ، فهنا يرجع المؤمن إلى ما حاك في صدره ، وإن أفتاه هؤلاء المفتون ، وقد نص الإمام أحمد على مثل هذا أيضاً » [3] . أ هـ .

والخلاصة : أن استفتاء القلب إنما يُطلب حيث لا يوجد مفت ثقة يستند إلى دليل شرعي معتبر ، يثق المسلم بعلمه ودينه معاً .

وأضاف العلامة الشوكاني معنى آخر في حديث : « استفت قلبك » وهو : أن ذلك في الواقعة التي تتعارض فيها الأدلة [4] .

ومعنى هذا أن الأدلة حين تتعارض ، ولا يوجد مرجح واضح يرجح أحدها على الآخر ، يكون قلب المؤمن وما يفتي به مرجحاً من المرجحات .

أقول : ومثله تعارض أجوبة أهل الفتوى بالنسبة للعامي المقلِّد ، ولم يكن لديه مرجح لأحدهم على الآخر أو الآخرين ، فينبغي أن يرجع إلى مَن يطمئن إليه قلبه .

---

(١) الأحزاب : ٣٦ (٢) النساء : ٦٥

(٣) جامع العلوم والحكم جـ ٢ / ١٠١ - ١٠٣ ط. الرسالة .

(٤) إرشاد الفحول ص ٢٤٩

ولكن متى يؤخذ فتوى القلب ؟ فى الإباحة أم التحريم أو فيهما معاً ؟ هنا يقول الإمام الغزالى : واستفتاء القلب إنما هو حيث أباح المفتى ، أما حيث حرَّم فيجب الامتناع .

وهذا مقبول إذا كان تحريم المفتى بدليل مقنع .

ولكن أى قلب يعتمد عليه فى الفتوى ؟

هنا يذكر الغزالى أنه لا يعول على كل قلب ، فرُبَّ قلب موسوس ينفى كل شىء ، ورُبَّ متساهل يطير إلى كل شىء ، فلا اعتبار بهذين القلبين ، وإنما الاعتبار بقلب العالِم الموفق لدقائق الأحوال ، فهو المحك الذى يمتحن به حقائق الأمور ، وما أعز هذا القلب [١] .

* *

● حديث : « لقد كان فيمن قبلكم مُحدَّثون » :

٥ - وأما حديث : « لقد كان فيمن قبلكم مُحدَّثون ، فإن يكن فى أمَّتى منهم أحد فعمر بن الخطاب » ، فهو حديث صحيح متفق عليه [٢] ، ولكن لا دليل فيه على الدعوى .

ولا بد من وقفة عند نص الحديث ، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « جزم بأنهم كائنون فى الأمم قبلنا ، وعلَّق وجودهم في هذه الأُمَّة بـ « إن » الشرطية ، مع أنها أفضل الأُمم ، لاحتياج الأُمم قبلنا إليهم ، واستغناء هذه الأُمَّة عنهم بكمال نبيها ورسالته ، فلم يحوج الله الأُمَّة بعده إلى مُحدَّث ولا مُلهَم ، ولا صاحب كشف ولا منام . فهذا التعليق لكمال الأُمَّة ، واستغنائها لا لنقصها » [٣] .

---

(١) إرشاد الفحول ص ٢٤٩

(٢) رواه البخارى من حديث أبى هريرة ، ومسلم من حديث عائشة .

(٣) انظر مدارج السالكين : ١/ ٣٩

والحديث ليس فيه أى دليل على أن المُحدَّث أو المُلهَم يعمل بحديث قلبه فى مواجهة شرع ربه ، ولو فعل لكان مُحدَّثاً من الشيطان لا من الرحمن .

قال الإمام ابن تيمية فيما نقله عنه تلميذه ابن القيم : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : « حدَّثنى قلبى عن ربى » ، فصحيح أن قلبه حدَّثه ولكن عمن ؟ عن شيطانه ؟ أو عن ربه ؟! فإذا قال : « حدَّثنى قلبى عن ربى » كان مسنداً الحديث إلى مَن لم يعلم أنه حدَّثه به ، وذلك كذب .

قال : « ومحدَّث الأُمَّة - يعنى عمر بن الخطاب - لم يكن يقول ذلك ، ولا تفوَّه به يوماً من الدهر ، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك ، بل كتب كاتبه يوماً : « هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » فقال : لا ، امحه واكتب : « هذا ما رأى عمر بن الخطاب ، فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطئاً فمن عمر ، والله ورسوله منه برىء » .

وقال فى الكلالة - ميراث مَن مات ولا والد له ولا ولد - : « أقول فيها برأيى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمنى ومن الشيطان » .

فهذا قول المُحدَّث بشهادة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأنت ترى الاتحادى والحلولى والإباحى ، والشطاح والسماعى ، يجاهر بالقحة والفرية فيقول : حدَّثنى قلبى عن ربى » !!

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين ، والقولين والحالين ، وأعط كل ذى حق حقه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً » [1] .

وأما ادعاء بعض المُحدَّثين أو المُلهَمين بأنه جاءه التحديث أو الإلهام أو الكشف مقروناً بسماع ، قطع بموجبه ، وأنه من الله تعالى إليه ، بعلم ضرورى يجده فى نفسه ، فقد حقق هذا المقام الإمام ابن القيم تحقيقاً يجب أن ننقله عنه ،

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم : ١/ ٤٠

حتى لا تزل الأقدام ، وتضل الأفهام . قال في « المدارج » شارحاً لكلام الشيخ الهروى :

« قلت : أما حصوله بواسطه سمع : فليس ذلك إلهاماً ، بل هو من قبيل الخطاب ، وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء ، وهو الذى خُصَّ به موسى ، إذ كان المخاطِب هو الحق عزَّ وجَلَّ .

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع : فهو من أحد وجوه ثلاثة ، لا رابع لها :

أعلاها : أن يخاطبه الملك خطاباً جزئياً . فإن هذا يقع لغير الأنبياء ، فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام ، فلما اكتوى تركت خطابه ، فلما ترك الكى عاد إليه الخطاب . وهو نوعان :

أحدهما : خطاب يسمعه بأذنه ، وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين .

والثانى : خطاب يُلقَى فى قلبه يخاطِب به المَلَك روحه ، كما فى الحديث المشهور : « إن للمَلَك لمة بقلب ابن آدم ، وللشيطان لمة . فلمة المَلَك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان : إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد » ، ثم قرأ : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، قيل فى تفسيرها : قوُّوا قلوبهم ، وبشِّروهم بالنصر . وقيل : احضروا معهم القتال .

والقولان حق . فإنهم حضروا معهم القتال ، وثبَّتوا قلوبهم .

ومن هذا الخطاب : واعظ الله عزَّ وجَلَّ فى قلوب عباده المؤمنين كما فى جامع الترمذى ومسند أحمد من حديث النوَّاس بن سمعان عن النبى ﷺ ،

---

(١) البقرة : ٢٦٨ (٢) الأنفال : ١٢

قال : « إنَّ الله تعالى ضرب مثلاً : صراطاً مستقيماً ، وعلى كنفتى الصراط سوران ، لهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو فوق الصراط ، فالصراط المستقيم : الإسلام . والسوران : حدود الله . والأبواب المفتحة : محارم الله . فلا يقع أحد فى حد من حدود الله حتى يكشف الستر . والداعى على رأس الصراط : كتاب الله . والداعى فوق الصراط : واعظ الله فى قلب كل مؤمن » ، فهذا الواعظ فى قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهى بواسطة الملائكة .

وأما وقوعه بغير واسطة : فمما لم يتبين بعد . والجزم فيه بنفى أو إثبات موقوف على الدليل . والله أعلم .

« النوع الثانى من الخطاب المسموع : خطاب الهواتف من الجان . وقد يكون المخاطِب جنياً مؤمناً صالحاً ، وقد يكون شيطاناً . وهذا أيضاً نوعان :

أحدهما : أن يخاطبه خطاباً يسمعه بأذنه .

والثانى : أن يلقى فى قلبه عندما يلم به . ومنه وعده وتمنيته حين يعد الإنسى ويمنيه ، ويأمره وينهاه . كما قال تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلا غُرُوراً ﴾ (١) ، وقال : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (٢) . وللقلب من هذا الخطاب نصيب ، وللأذن أيضاً منه نصيب ، والعصمة منتفية إلا عن الرسل ، ومجموع الأمَّة .

فمن أين للمخاطَب أن هذا الخطاب رحمانى ، أو مَلَكى ؟ بأى برهان ؟ أو بأى دليل ؟ والشيطان يقذف فى النفس وحيه ، ويلقى فى السمع خطابه ، فيقول المغرور المخدوع : « قيل لى ، وخوطبت » صدقت ، لكن الشأن في القائل لك والمخاطِب ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لغيلان بن سلمة – وهو من الصحابة لما طلَّق نساءه ، وقسَّم ماله بين بنيه – « إنى لأظن

---

(١) النساء : ١٢٠ (٢) البقرة : ٢٦٨

الشيطان – فيما يسترق من السمع – سمع بموتك ، فقذفه فى نفسك » ، فمن يأمن القُرَّاء بعدك يا شهر ؟

« النوع الثالث : خطاب حالى ، تكون بدايته من النفس ، وعوده إليها ، فيتوهمه من خارج ، وإنما هو من نفسه ، منها بدأ وإليها يعود .

وهذا كثيراً ما يعرض للسالك ، فيغلط فيه ، ويعتقد أنه خطاب من الله . كلَّمه به منه إليه . وسبب غلطه : أن اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صفت بالرياضة ، وانقطعت علقها عن الشواغل الكثيفة : صار الحكم لها بحكم استيلاء الروح والقلب على البدن ، ومصير الحكم لها ، فتنصرف لهما ، فتنصرف عناية النفس والقلب إلى تجريد المعانى التى هى متصلة بهما . وتشتد عناية الروح بها ، وتصير فى محل تلك العلائق والشواغل فتملأ القلب . فتصرف تلك المعانى إلى المنطق ، والخطاب القلبى الروحى بحكم العادة ، ويتفق تجرد الروح ، فتتشكل تلك المعانى للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة ، وللقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية ، فيرى صورها ، ويسمع الخطاب ، وكله فى نفسه ليس فى الخارج منه شيء ، ويحلف أنه رأى وسمع ، وصدق لكن رأى وسمع فى الخارج ، أو فى نفسه ؟ ويتفق ضعف التمييز . وقِلَّة العلم ، واستيلاء تلك المعانى على الروح ، وتجردها عن الشواغل .

فهذه الوجوه الثلاثة هى وجوه الخطاب ، ومن سمَّع نفسه غيرها فإنما هو غرور ، وخدع وتلبيس ، وهذا الموضع مقطع القول ، وهو من أجل المواضع لمن حققه وفهمه . والله الموفق للصواب » (١) .

* *

---

(١) مدارج السالكين : ١/ ٤٥ – ٤٨

● قياس الإلهام على الرؤيا الصادقة :

أما قياس الإلهام والكشف على الرؤيا الصادقة ، وخصوصاً رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى لا يتمثل الشيطان به . . فهو قياس لم يستوف شرائطه ، لأن المقيس عليه نفسه غير مسلَّم عند الخصم .

وقد عُلِم أن الرؤى الصادقة مجرد مبشرات ومنبهات ، كما صح فى الحديث ، وليست أدلة تؤخذ منها الأحكام .

حتى رؤيا النبى ﷺ نفسه ، لا يجوز أن تكون مصدراً لحكم شرعى ، لم يثبت بالقرآن والسُّنَّة ، بعد أن أكمل الله لنا الدين ، وأتم به علينا النعمة ، وهو ما قرره المحققون من علماء الأُمَّة ، وردوا على مَن اتخذ من حديث : « إن الشيطان لا يتمثل بى » - وهو صحيح متفق عليه - دليلاً على أنها تكون حُجَّة يلزم العمل بها .

قالوا : لا تكون الرؤيا حُجَّة ، ولا يثبت بها حكم شرعى ، وإن كانت رويا النبى ﷺ رؤيا حق ، والشيطان لا يتمثل به ، لكون النائم ليس من أهل التحمل للرواية لعدم ضبطه وحفظه [(١)] .

ونضيف هنا أمراً آخر ، وهو : أن الرائى لا يمكنه أن يجزم ويوقن بأن الذى رآه هو النبى ﷺ ، إلا إذا كان يعرف صورته فى اليقظة معرفة تامة ، وذلك لا يتحقق إلا للصحابة رضى الله عنهم . وربما لمن عرف أوصافه عليه الصلاة والسلام معرفة كاملة . وسنحقق ذلك بتفصيل فى موضع آخر .

وذكر الشوكانى قولاً آخر : أنه يعمل بالرؤيا ما لم تخالف شرعاً ثابتاً .

قال الشوكانى : « ولا يخفاك أن الشرع الذى شرعه الله لنا على لسان نبينا ﷺ قد كمَّله الله عَزَّ وجَلَّ ، وقال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [(٢)] ، ولم

---

(١) إرشاد الفحول للشوكانى ص ٢٤٩ (٢) المائدة : ٣

يأتنا دليل يدل على أن رؤيته في النوم بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم إذا قال فيها بقول ، أو فعل فيها فعلاً ، يكون دليلاً وحُجَّة . بل قبضه الله إليه بعد أن كمل لهذه الأُمَّة ما شرعه لها على لسانه ، ولم يبق بعد ذلك حاجة للأُمَّة في أمر دينها ، وقد انقطعت البعثة لتبليغ الشرائع وتبيينها بالموت ، وإن كان رسولاً حياً وميتاً . وبهذا نعلم أن لو قدرنا ضبط النائم لم يكن ما رآه من قوله صلى الله عليه وآله وسلم أو فعله حُجَّة عليه ولا على غيره من الأُمَّة » [1] . أ هـ .

* *

● قصة الخضر مع موسى :

وأما الاستدلال بقصة الخضر مع موسى ، أو موسى مع الخضر عليهما السلام ، فلا يملك المسلم فيها أو فيما شابهها إلا أن يقف موقف موسى أولاً ، بأن ينكر كل ما خالف ظاهر الشرع ، إلا أن يكون معه أمر من الله باتباع ذلك الآخر المخالف ، ولا أمر بعد رسول الله ﷺ ، فقد اكتمل الدين وانقطع الوحي ، فموسى ينفذ أمر الله باتباع الخضر ، والخضر ينفذ أمر الله كذلك في مواقفه الثلاثة ، كما سجل القرآن ذلك على لسانه إذ يقول في نهاية القصة لموسى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ [2] .

وللإمام أبي إسحاق الشاطبي ، كلمة نَيِّرة يرد بها على مَن تعلَّق بقصة الخضر عليه السلام في جواز مخالفة الشريعة باسم الكشف أو غيره ، ذكرها في كتابه القيم « الموافقات » قال :

« وأما قصة الخضر – عليه السلام – وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ ، فيظهر به أنه نبي وذهب إليه جماعة من العلماء استدلالاً بهذا القول . ويجوز

---

(١) إرشاد الفحول للشوكاني ص ٢٤٩ (٢) الكهف : ٨٢

للنبى أن يحكم بمقتضى الوحى من غير إشكال ، وإن سلم فهى قضية عَيْن ، ولأمر ما ، وليست جارية على شرعنا .

والدليل على ذلك أنه لا يجوز فى هذه المِلَّة لولى ، ولا لغيره ممن ليس بنبى أن يقتل صبياً لم يبلغ الحُلُم ، وإن علم أنه طُبِع كافراً ، وأنه لا يؤمن أبداً ، وأنه إن عاش أرهق أبويه طغياناً وكفراً ، وإن أُذن له من عالَم الغيب فى ذلك ، لأن الشريعة قد قررت الأمر والنهى ، وإنما الظاهر فى تلك القصة أنها وقعت على مقتضى شريعة أخرى ، وعلى مقتضى عتاب موسي - عليه السلام ، وإعلامه أن ثَمَّ علماً آخر ، وقضايا أُخر لا يعلمها هو .

فليس كل ما اطلع عليه الولى من الغيوب يسوغ له شرعاً أن يعمل عليه ، بل هو على ضربين :

أحدهما : ما خالف العمل به ظواهر الشريعة من غير أن يصح رده إليها ، فهذا لا يصح العمل عليه ألبتة .

والثانى : ما لم يخالف العمل به شيئاً من الظواهر ، أو إن ظهر منه خلاف فيرجع بالنظر الصحيح إليها ، فهذا يسوغ العمل عليه . وقد تقدَّم بيانه .

فإذا تقرر هذا الطريق فهو الصواب ، وعليه يُربَّى المربى ، وبه يُعلَّق همم السالكين ، تأسياً بسيد المتبوعين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أقرب إلى الخروج عن مقتضى الحظوظ ، وأولى برسوخ القدم ، وأحرى بأن يُتابَع عليه صاحبه ، ويُقتدَى به فيه ، والله أعلم » (1) .

وقبل الشاطبى بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية بالأدلة الناصعة من الكتاب والسُّنَّة الغلط الذى وقع لأولئك القوم فى الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة ، ومما ذكره : أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى

(1) الموافقات : ٢/٢٩٦ ، ٢٩٧

الخضر ولا أوجب الله على الخضر متابعته وطاعته ، بل قد ثبت فى الصحيحين : « أن الخضر قال له : يا موسى ؛ إنى على علم من علم الله علَّمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علَّمكه الله لا أعلمه »، وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة .

وقد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فيما فضَّله الله به على الأنبياء ، قال : « كان النبى يُبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثتُ إلى الناس عامة » .

فدعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - شاملة لجميع العباد ، ليس لأحد الخروج عن متابعته وطاعته ، والاستغناء عن رسالته ، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعته موسى وطاعته ، مستغنياً عنه بما علَّمه الله .

وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد : إنى على علم من علم الله علَّمنيه الله لا تعلمه .

ومَن سوَّغ هذا ، أو اعتقد أن أحداً من الخلق - الزهاد والعباد أو غيرهم - له الخروج عن دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ومتابعته ، فهو كافر باتفاق المسلمين ، ودلائل هذا من الكتاب والسُّنَّة أكثر من أن تُذكر هنا .

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة ، ولهذا لما بيَّن الخضر لموسى الأسباب التى فعل لأجلها ما فعل ، وافقه موسى ، ولم يختلفا حينئذ . ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى لما وافقه . »

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل فى الشريعة ، والآخر لا يعلم ذلك السبب ، وإن كان قد يكون أفضل من الأول ، مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص ، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف فى منزله ، إما بإذن لفظى أو غيره ، فيتصرف ، وذلك مباح فى الشريعة ، والآخر الذى لم يعلم هذا السبب لا يتصرف .

وخرق السفينة كان من هذا الباب ، فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملكاً يأخذ كل سفينة غصباً ، وكان من المصلحة التى يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك ، لئلا يأخذها . . خير من انتزاعها منهم .

ونظير هذا حديث الشاة التى أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها ، فسألوا النبى ﷺ عنها فأذن لهم فى أكلها ، ولم يُلزم التى ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح ، لأنه كان مأذوناً فيه عُرفاً ، والإذن العُرفى ، كالإذن اللّفظى .

ولهذا بايع النبى ﷺ عن عثمان فى غيبته بدون استئذانه لفظاً .

ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفراً قليلاً إلى بيته ، قام بجميع أهل المسجد لما علم من طيب نفس أبى طلحة ، وذلك لما يجعله الله من البركة ، وكذلك حديث جابر .

وقد ثبت أن لحّاماً ، دعاه فاستأذنه فى شخص يستتبعه ؛ لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللّحام ما علمه من طيب نفس أبى طلحة وجابر وغيرهما .

وكذلك قتل الغلام ، كان من باب دفع الصائل على أبويه ، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما ، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين ، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال .

فلهذا ثبت فى صحيح البخارى أن نجدة الحرورى (من رؤوس الخوارج) لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال : « إن كنتَ تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم » [1] .

* *

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية – المجلد الحادى عشر – ، ص ٤٢٥ ، وما ذكره عن ابن عباس هنا ، فإنما قصد به – كما قال السبكي – المحاجة والإحالة على ما لا يمكن ، قطعاً لطمعه فى الاحتجاج بقصة الخضر ، وليس مقصوده – رضى الله عنه– أنه إن حصل له ذلك يجوز القتل (انظر روح المعانى للألوسى : ١٦/١٧) .

● **شهادة القلب فى التحرى :**

زاد بعضهم دليلاً آخر ، لمشروعية الاحتجاج بالإلهام على الأحكام ، فاستدل بما قرره الفقهاء من الترجيح بين القياسين المتعارضين بشهادة القلب ، وكذلك أنواع التحرى فى القِبْلة ، واختلاط الحرام بالحلال ، والنجس بالطاهر .

ذكر ذلك العلامة الفنارى الحنفى ، ورد عليه قائلاً : « التحرى ليس من الإلهام المخصوص بالعدل التقى ، بل هو دليل ضرورى لا يُعمل به إلا عند العجز عن أسباب العلم ، مشروع فى حق الصالح والطالح » [1] . أ هـ .

* * *

---

(١) فصول البدائع : ٢/ ٣٩٢

٢ – ادعاء العصمة لما جاء عن طريق الكشف والإلهام

من النقاط الأساسية التى خطّأ فيها المحققون من علماء السُّنَّة الطائفة التى غلت فى إثبات الإلهام وحجيته : هى اضفاؤهم على ما جاءهم عن طريق الإلهام والكشف لوناً من القداسة والعصمة ، بدعوى أنه من الله تعالى ، وما كان من عند الله فهو حق لا يدخله باطل .

وإذا كانت أقوال الأئمة المجتهدين منذ عصر الصحابة فمن بعدهم قابلة للصواب والخطأ ، وهم مأجورون على الصواب أجرين ، ومأجورون على الخطأ أجراً واحداً ، لإخلاصهم واستفراغهم الوسع فى تحرِّى الصواب وتحصيله ، فإن خواطر الصوفية وإلهاماتهم لا تقبل الخطأ فى زعمهم .

ولهذا وجدنا مثل صاحب « فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت » فى أصول الفقه ، وهو ذو نزعة صوفية ظاهرة ، يرد على العلامة ابن الهمام الحنفى – الذى نفى أن يكون الإلهام حُجَّة أصلاً لانعدام ما يوجب نسبته إلى الله تعالى – قائلاً : « إن الإلهام لا يكون إلا مع خلق علم ضرورى أنه من عند الله تعالى ، أو من عند الروح المحمدى ، فحينئذ لا يتطرق إليه شبهة الخطأ ، وهذا النحو من العلم أعلى مما يحصل بالأدلة غير القاطعة ، فالعجب كل العجب من مثل هذا الشيخ قد رفض وعاء من العلم ، ولعله زعم أن الإلهام ما يحدث فى القلب من قبيل الخطرات ، وليس كذلك ، أما سمعتَ ما كتب الشيخ قطب وقته أبو يزيد البسطامى قُدِّسَ سره الشريف لبعض من المُحدِّثين : أنتم تأخذون عن ميت فتنسبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ، ونحن نأخذ من الحى الذى لا يموت ! وإن تأملتَ فى مقامات الأولياء ومواجيدهم وأذواقهم كمقامات الشيخ محيى الدين ، وقطب الوقت محيى المِلَّة والدين السيد عبد القادر الجيلانى ، الذى قدّمه على

رقاب كل ولى ، والشيخ سهل بن عبد الله التُّسترى والشيخ أبى مدين المغربى ، والشيخ أبى يزيد البسطامى ، وسيد الطائفة الجنيد البغدادى ، والشيخ أبى بكر الشبلى ، والشيخ عبد الله الأنصارى ، والشيخ أحمد النامقى ، وغيرهم - قُدِّست أسرارهم - علمتَ أن ما يُلهَمون به لا يتطرق إليه احتمال وشبهة ! بل هو حق حق حق ، مطابق لما فى نفس الأمر ! ويكون مع خلق علم ضرورى أنه من الله تعالى ، لكن لا ينالون هذا الوعاء من العلم إلا بالمدد المحمدى وتأييده ، لا بالذات من غير وسيلة أصلاً ، وإن تأملت فى كلام الشيخ الأكبر خليفة الله فى الأرضين خاتم فص الولاية الشيخ محيى المِلَّة والدين الشيخ محمد بن العربى قُدِّس سره ووفقنا لفهم كلماته الشريفة ، لما بقى لك شائبة وهم وشك فى أن ما يُلهَمون به من الله تعالى . ومما يصلح ههنا أنه علم ضرورة من الدين أن أولياء هذه الأُمَّة أفضل من أولياء الأمم السابقين ، كما أن نبيهم أفضل من نبى السابقين ، ولا شك أن الأولياء الذين كانوا فى بنى إسرائيل مثل مريم وأُم موسى وزوجة فرعون كان يُوحَى إليهم ، ولا أقل من أن يكون إلهاماً ، ولا يكون إلا مع خلق علم ضرورى أنه من الله تعالى ، فهو حُجَّة قاطعة ، ولو لم يكن أحد من هذه الأُمَّة المرحومة الفاضلة منهم أفضل فى تحصيل العلم القطعى ، فتكون مفضولة عنهم غاية المفضولية ، لأن التفاضل ليس إلا بالعلم ، والفضل بما عداه غير معتد به ، ولا خلف أشنع من هذا اللازم فافهم » (١) .

وقد نقلنا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ما يرد على آخر هذه المقولة ، باستغناء هذه الأُمَّة عن المُحدَّثين والمُلهَمين ، بكمال رسالة نبيهم ، وتمام شريعته ، ولهذا كانت صيغة الحديث : « فإن يكن فى أُمَّتى منهم أحد فعمر » .

أما ما ذكره صاحب الفواتح ، فهو كلام خطابى غير علمى ، ومجرد

---

(١) فواتح الرحموت المطبوع مع المستصفى للغزالى: ٢/ ٣٧٢

دعاوى عريضة من غير برهان ، وقد خلط في الأسماء التي حشرها الحابل بالنابل ، والسُّنِّي بالمبتدع ، والمُوَحِّد بالحلولي والاتحادي ، ومن عجب أن يكتب هذا في علم الأصول ، الذي هو ميزان العقول ، ومنطق المنقول !

وما قاله صاحب « الفواتح » هذا وأمثاله شبيه بما قاله الشيعة في أئمتهم ، وهو ما أنكره أهل السُّنَّة عليهم .

فقد انتهى قول الشيعة الاثنا عشرية بإلهام أئمتهم الاثنى عشر ، إلى القول بعصمتهم ، فما يُلهَمونه لا يتطرق إليه احتمال خطأ ، لأنه ليس ناشئاً عن اجتهاد ، كسائر الأئمة ، يحتمل الصواب والخطأ ، ويؤجر فيه المُصيب مرتين ، والمُخطئ مرة واحدة ، إنما هو إلهام من الله للإمام يكشف له به ما غاب عن غيره ، فهو الصواب حتماً ، سواء أكان خبراً أم حكماً . فإن كان خبراً فهو الصدق ولا بد ، وإن كان حكماً فهو العدل لا مراء !

وبهذا أثبتوا عصمة لغير رسول الله ﷺ ، وأوجبوا طاعة لغير الله ورسوله ، على خلاف ما قررته محكمات القرآن الكريم ، وبيِّنات الحديث الشريف .

بل لقد بلغ الاعتداد بالإلهام الذى يُمنح لبعض الناس في بعض المواقف أو القضايا : أن قال مَن قال من الغلاة والمنحرفين : إنَّ باب النبوة لم يُغلق ، وإن الوحى الذى نزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يكن هو الوحى الأخير ، بل يمكن أن ينزل على غيره !

بل تطاول بعضهم في وقاحة وسفالة ، ممن ينتسب إلى فلسفة الإشراق ، فقال لعنه الله : لقد حجّر ابن آمنة واسعاً حين قال : لا نبي بعدى !

وأعتذر إلى الله وإلى رسوله من وقاحة العبارة وسوء أدبها ، وكل إناء ينضح بما فيه !

* *

● لا عصمة لغير الكتاب والسُّنَّة :

ومن الواجب أن نقرر هنا بكل وضوح ويقين لا يعتريه ريب :

أنه لا عصمة لغير ما ثبت عن الله ورسوله . وكل أحد بعد ذلك يُؤخَذ من كلامه ويُرَد عليه . إن الله أمرنا أن نرجع فى معرفة أحكام شرعه إلى كتابه تعالى وسُنَّة نبيه ، وقال : ﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ [1] ، وقال : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [3] ، وقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ﴾ [4] ، وقال : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [5] ، وقال : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [6] .

فلم يأمرنا أن نرجع إلى قلوبنا أو أذواقنا أو خواطرنا وما يُكشف لنا ، فإنَّ شيئاً من ذلك لا عصمة له ، وقد يصح مرة ولا يصح أخرى .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : قد ضُمِنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسُّنَّة ، ولم تُضمن لنا العصمة فى الكشوف والإلهام [7] .

ولهذا كان أول المُحدَّثين المُلهَمين فى هذه الأُمَّة - وهو عمر بن الخطاب كما ثبت فى الصحيحين - يرجع إلى القرآن والسُّنَّة ويُحكِّمهما فى كل ما يعرض له .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « كان عمر بن الخطاب وقَّافاً عند كتاب الله ، وكان أبو بكر الصِّدِّيق يُبيِّن له أشياء تخالف ما يقع له، كما بيَّن له يوم

---

(١) الأعراف : ٣ (٢) النور : ٥٤ (٣) النور : ٥٤

(٤) الحشر : ٧ (٥) النور : ٦٣ (٦) النساء : ٥٩

(٧) نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية فى فتاواه ، مجموع الفتاوى : ٢/ ٩١

الحديبية ، ويوم موت النبى - صلى الله عليه وسلم - ويوم قتال مانعى الزكاة ، وغير ذلك .

وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة ، فتارة يرجع إليهم ، وتارة يرجعون إليه ، وربما قال القول فترد عليه امرأة من المسلمين قوله ، وتُبيِّن له الحق ، فيرجع إليها ، ويدع قوله .

وربما يرى رأياً فيُذكر له حديث عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فيعمل به ويدع رأيه ، وكان يأخذ بعض السُّنَّة عمن هو دونه فى قضايا متعددة ، وكان يقول القول ، فيقال له : أحسنتَ ، فيقول : واللهِ ما يدرى عمر أصاب الحق أم أخطأ !

فإذا كان هذا إمام المُحدَّثين ، فكل ذى قلب يُحدِّثه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر ، فليس فيهم معصوم ، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم ، وإن كان طائفة تدَّعى أن الولى محفوظ ، وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة - والحكيم الترمذى قد أشار إلى هذا - فهذا باطل مخالف للسُّنَّة والإجماع .

ولهذا اتفق المسلمون على أن كل أحد من الناس يُؤخَذ من قوله ويُترَك إلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإن كانوا متفاضلين فى الهدى ، والنور والإصابة .

ولهذا كان الصِّدِّيق أفضل من المُحدَّث ، لأن الصِّدِّيق يأخذ من مشكاة النبوة ، فلا يأخذ إلا شيئاً معصوماً محفوظاً . أما المُحدَّث فيقع له صواب وخطأ ، والكتاب والسُّنَّة تميز صوابه من خطئه ، وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسُّنَّة ، فما وافق آثار الرسول فهو الحق ، وما خالف ذلك فهو باطل ، وإن كانوا مجتهدين فيه ، والله تعالى يثيبهم على اجتهادهم ، ويغفر لهم خطأهم .

ومعلوم أن السابقين الأوَّلين أعظم اهتداءً واتباعاً للآثار النبوية ، فهو أعظم إيماناً وتقوى »[1] . أ هـ .

* *

• نتائج الإلهام غير ثابتة ولا مطردة :

يؤكد ذلك أن الإلهام أو الكشف - كما قال صاحب « المنار » رحمه الله في تفسيره - إنما هو ضرب من إدراك النفس الناطقة ، غير ثابت ولا مطرد ، فليس بدليل عقلى ولا شرعى ، إنما هو إدراكات ناقصة تخطيء وتصيب ، وقد عرفت أسبابه الطبيعية ، وأن منها ما هو فطرى ، ومنها ما هو كسبى وصناعى ، كالتنويم المغناطيسى المعروف فى هذا العصر ، وما يسمونه قراءة الأفكار ، ومراسلة الأفكار ، ويشبهونه بنقل الأخبار بخطوط الأسلاك الكهربائية وبدونها ، وهو يقع للمؤمن والكافر ، والبَرِّ والفاجر ، ويعترف به صوفية المسلمين لصوفية الهندوس وغيرهم ، كما يعترفون بتلبيس الشياطين عليهم فيه ، وقلَّة مَن يُميِّز بين الكشف الشيطانى والكشف الحقيقى منهم ، ولا يصح أن يُسمى حقيقياً إلا ما وافق نصاً قطعياً .

ومن دلائل الخطأ والتلبيس والتخيلات فى الكشف الذى يسمونه « النورانى » تعارض أهله وتناقضهم فيه ، وما يذكرونه فيه من معلوماتهم المختلفة باختلاف معلوماتهم الفنية والخرافية والشرعية . . . فترى بعضهم يذكر فى كشفه « جبل قاف » المحيط بالأرض ! و« الحية » المحيطة به ! كما تراه فى ترجمة الشعرانى للشيخ أبى مدين ، وهو من الخرافات التى لا حقيقة لها .

ومنهم مَن يذكر فى كشفه الأفلاك وكواكبها على الطريقة اليونانية الباطلة أيضاً ، وأكثرهم يذكرون في كشفهم الأحاديث الموضوعة ، فإن اعترض عليهم - أو على المفتونين بكشفهم - علماء الحديث ، قالوا : إن الحديث قد

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٢/٢٢٦ ، ٢٢٧

صح فى كشفنا ، وإن لم يصح فى رواياتكم ، وكشفنا أصح ، لأنه من علم اليقين ، وعلمكم ظنى !

والحاصل أن كشفاً هذا شأنه وشأن أهله ، إن صح أن نُصدِّقه فيما لا يخالف الشرع وعقائده وأحكامه ، فلا يصح لمن يؤمن بكتاب الله وسُنَّة رسوله ، أن يُصدِّق منه ما يخالفهما ، وأن يُثبت من أمر عالَم الغيب ما لم يثبت بهما ، وما أغنانا عن هذا كله [1] .

* * *

---

(١) تفسير المنار للعلامة محمد رشيد رضا : ٤٤٧/١١ ، الطبعة الرابعة .

وقد ذكر العلامة الألوسى عن صاحب الفتوحات المكية فى الباب (ص ٣٧١) من أوصاف العرش وقوائمه وأنه أحد حملته ! وأنه أنزل عند أفضل قوائمه ! قال : وأطال الكلام فى هذا الباب ، وأتى فيه بالعجب العجاب ، وليس له - فى أكثر ما ذكره فيه - مستند نعلمه من كتاب الله تعالى ، أو سُنَّة رسوله ﷺ ومنه ما لا يجوز أن نقول بظاهره . (انتهى من روح المعانى : جـ ١٦١/١٦) .

٣ - ضلالة ازدراء العلم الشرعى

ومن ضلالات المعظمين للكشف والإلهام ، والقائلين بحجيته ، المؤمنين بقدسيته ، ازدراؤهم للعلم الشرعى : علم القرآن والسُّنَّة والفقه والأصول ، وما تفرَّع عنها ، وتحقير أولئك الذين يذيبون شموع أعمارهم فى طلبه وتحصيله ، والتعمق فيه ، مستغنين بكشفهم المزعوم عن السعى لتلقى العلم من أهله ، جاهلين أو متجاهلين : أن الأنبياء لم يُوَرِّثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما وَرَّثوا أممهم العلم ، وأن « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[(١)] ، كما نطق بذلك حديث المعصوم ، وكما أجمعت عليه الأُمَّة .

والعلم المفروض طلبه هنا هو علم النبوة ، الذى به يُعرف الله سبحانه ، ويُعرف الطريق إليه ، ويُعرف ما يحبه وما يكرهه ، ولا طريق لذلك إلا معرفة الشريعة التى جاء بها محمد ﷺ . وبها يعرف المسلم دينه ، ويصحح عقيدته وعبادته ويضبط سلوكه .

فالعلم بشرع الله تعالى ، كما نزل به وحيه إلى رسوله فى كتابه وسُنَّته ، هو الدليل المعصوم الذى لا يخطىء ولا ينسى .

وهو - كما قال ابن القيم - تركة الأنبياء ، وتراثهم ، وأهله عصبتهم ووراثهم ، وهو حياة القلوب ، ونور البصائر ، وشفاء الصدور ، ورياض العقول ، ولذة الأرواح ، وأنس المستوحشين ، ودليل المتحيرين ، وهو الميزان الذى به توزن الأقوال والأعمال والأحوال .

---

(١) روى من طرق كثيرة عن عدد من الصحابة بأسانيد ضعيفة ، ولذا صححه السيوطى لغيره كما فى « فيض القدير » ، وصححه من المعاصرين الألبانى أيضاً فى تخريج كتابنا « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام » ص ٨٦ ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٩١٣ ، ٣٩١٤) .

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين ، والغى والرشاد ، والهدى والضلال ، به يُعرف الله ويُعبد ، ويُذكر ويُوحَّد ، ويُحمد ويُمجَّد ، وبه اهتدى إليه السالكون ، ومن طريقه وصل إليه الواصلون ، ومن بابه دخل عليه القاصدون .

به تُعرف الشرائع والأحكام ، ويتميز الحلال من الحرام ، وبه تُوصل الأرحام ، وبه تُعرف مراضى الحبيب ، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب .

وهو إمام والعمل مأموم ، وهو قائد والعمل تابع ، وهو الصاحب فى الغربة ، والمُحدِّث فى الخلوة ، والأنيس فى الوحشة ، والكاشف عن الشبهة ، والغنى الذى لا فقر على مَن ظفر بكنزه ، والكنف الذى لا ضيعة على مَن أوى إلى حرزه .

مذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه قُربة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تعدل الصيام والقيام ، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام .

قال الإمام أحمد - رضى الله عنه - : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب فى اليوم مرة أو مرتين ، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه .

وروينا عن الشافعى - رضى الله تعالى عنه - أنه قال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ، ونص على ذلك أبو حنيفة رضى الله عنه .

وقال ابن وهب : كنت بين يدى مالك - رضى الله عنه - فوضعت ألواحى وقمت أصلِّى ، فقال : ما الذى قمتَ إليه بأفضل مما قمتَ عنه . . . ذكره ابن عبد البر وغيره .

واستشهد الله - عزَّ وجَلَّ - بأهل العلم على أجَلِّ مشهود به وهو « التوحيد» ،

وقرن شهادتهم بشهادته ، وشهادة ملائكته [1] ، وفي ضمن ذلك تعديلهم ، وأنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح .

ومن ههنا - والله أعلم - يؤخذ الحديث المعروف : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » [2] .

وهو حُجَّة الله في أرضه ، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إلى جنته ، ومُدْنيهم من كرامته . ويكفي في شرفه : أنَّ فضل أهله على العبّاد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وأنَّ الملائكة لتضع لهم أجنحتها ، وتظلهم بها ، وأن العالِم يستغفر له مَن في السموات ومَن في الأرض ، حتى الحيتان في البحر ، وحتى النمل في جحرها ، وأنَّ الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير .

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران - عليه الصلاة والسلام - في طلب العلم هو وفتاه ، حتى مسَّهما النَّصَب في سفرهما في طلب العلم ، حتى ظفر بثلاث مسائل ، وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به .

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال : ﴿ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [3] ، وحرَّم الله صيد الجوارح الجاهلة ، وإنما يُباح للأمة صيد الجوارح العالمة ، فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يجدى عليه صيدها من الأعمال شيئاً » [4] . أ هـ .

* *

---

(1) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ (آل عمران : ١٨) .

(2) رواه البيهقي في سننه ، وقواه ابن القيم في « مفتاح دار السعادة » . انظر : تخريجنا له في كتابنا « كيف نتعامل مع السنة النبوية » .

(3) طه : ١١٤

(4) مدارج السالكين : ٢/٤٦٩ ، وما بعدها .

● الصوفية الأوَّلون ملتزمون باتباع الشريعة :

ولا غرو أن وجدنا من سادات الصوفية مَن أنكر على المنحرفين هذه الدعاوى العريضة التى زعموا فيها الاستغناء عن علم الكتاب والسُّنَّة .

ونذكر هنا بعض ما نقله ابن القيم فى « مدارج السالكين » عن المعتدلين من أكابر شيوخهم :

« قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على مَن اقتفى آثار الرسول ﷺ .

وقال : مَن لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث ، لا يُقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا مُقيَّد بالكتاب والسُّنَّة .

وقال : مذهبنا هذا مُقيَّد بأُصول الكتاب والسُّنَّة .

وقال أبو حفص - رحمه الله - : مَن لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسُّنَّة ، ولم يتهم خواطره ، فلا يُعد فى ديوان الرجال .

وقال أبو سليمان الدارانى - رحمه الله - : ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياماً ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسُّنَّة .

وقال أبو زيد : عملتُ فى المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدتُ شيئاً أشد علىّ من العلم ومتابعته . .

وقال مرة لخادمه : قم بنا إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره ، فلما دخلا عليه المسجد تنخع ، ثم رمى بها نحو القِبْلة ، فرجع فلم يُسلِّم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعيه ؟

وقال : لقد هممتُ أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة النساء ، ثم قلت : كيف يجوز لى أن أسأل الله هذا ، ولم يسأله رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - ؟ ولم أسأله ، ثم إن الله كفانى مؤنة النساء ، حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو حائط .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أُعطى من الكرامات إلى أن يرتفع فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وآداب الشريعة !

وقال أحمد بن أبى الحوارى - رحمه الله - : مَن عمل عملاً بلا اتباع سُنَّة ، فباطل عمله » [1] .

قال ابن القيم : « وأما الكلمات التى تُروى عن بعضهم : من التزهيد فى العلم ، والاستغناء عنه ، كقول مَن قال : « نحن نأخذ علمنا من الحى الذى لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حى يموت » !

وقول الآخر - وقد قيل له : ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق ؟ فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق ، مَن يسمع من الخلاق ؟!

وقول الآخر : العلم حجاب بين القلب وبين الله عزَّ وجلَّ !

وقول الآخر : إذا رأيت الصوفى يشتغل بـ « أخبرنا » و« حدَّثنا » فاغسل يدك منه !

وقول الآخر : لنا علم الخرق ، ولكم علم الورق .

ونحو هذا من الكلمات التى أحسن أحوال قائلها : أن يكون جاهلاً يُعذر بجهله ، أو شاطحاً معترفاً بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله ، ولولا « أخبرنا » و« حدَّثنا » لما وصل إلى هذا وأمثاله شىء من الإسلام .

ومَن أحالك على غير « أخبرنا » و« حدَّثنا » فقد أحالك : إما على خيال صوفى ، أو قياس فلسفى ، أو رأى نفسى ، فليس بعد القرآن و« أخبرنا »

---

(١) مدارج السالكين : ٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥

و« حدَّثنا » إلا شبهات المتكلمين ، وآراء المنحرفين ، وخيالات المتصوفين ، وقياس المتفلسفين . ومَن فارق الدليل ، ضلَّ عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة ، سوى الكتاب والسُّنَّة . وكل طرق لم يصحبها دليل القرآن والسُّنَّة فهى من طرق الجحيم ، والشيطان الرجيم » (١) .

* *

• العلم اللدنِّى :

أما العلم اللدنِّى الذى طنطن به بعضهم ، وزعم الاستغناء به عن العلم الكسبى ، فقد قال فيه ابن القيم فى شرح ما جاء فى كلام الهروى عنه فى « منازل السائرين » :

« العلم اللدنِّى » هو العلم الذى يقذفه الله فى القلب بلا سبب من العبد ، ولا استدلال ، ولهذا سمى لدنِّيا . قال تعالى : ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) ، ولكن هذا العلم أخص من غيره ، ولذلك أضافه إليه سبحانه ، كبيته وناقته وبلده وعبده ، ونحو ذلك . فتضمحل العلوم المستندة إلى الأدلة والشواهد فى العلم اللدنِّى ، الحاصل بلا سبب ولا استدلال ، هذا مضمون كلامه (يعنى الهروى صاحب « المنازل ») .

قال ابن القيم : « ونحن نقول : إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة ، هو العلم الحقيقى ، وأما ما يُدَّعى حصوله بغير شاهد ولا دليل ، فلا وثوق به (وليس بعلم) . نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد ، بحيث يصير المعلوم كالمشهود ، والغائب كالمعايَن ، وعلم اليقين كعين اليقين ، فيكون الأمر شعوراً أولاً ، ثم تجويزاً ، ثم ظناً ، ثم علماً ، ثم معرفة ، ثم علم يقين ، ثم حق يقين ، ثم عَين يقين ، ثم تضمحل كل مرتبة فى التى فوقها ، بحيث يصير الحكم لها دونها ، فهذا حق .

---

(١) مدارج السالكين : ٢/ ٤٦٨ (٢) العلق : ٥

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال ، فليس بصحيح ، فإن الله سبحانه ربط التعريفات بأسبابها ، كما ربط الكائنات بأسبابها ، ولا يحصل لبَشر علم إلا بدليل يدله عليه ، وقد أيَّد الله سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التى دلَّتهم على أن ما جاءوا به هو من عند الله ، ودلَّت أممهم على ذلك . وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند الله ، وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأُمم . فالأدلة والشواهد التى كانت لهم ، ومعهم : أعظم الشواهد والأدلة ، والله تعالى شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد ، فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها ، وحكم لا برهان عند قائله . وما كان كذلك لم يكن علماً ، فضلاً عن أن يكون لَدُنِّياً .

فالعلم اللدُنِّى : ما قام الدليل الصحيح عليه ، أنه جاء من عند الله على لسان رسله ، وما عداه فلدُنِّى من لَدُن نفس الإنسان ، منه بدأ وإليه يعود .

وقد انبثق سد العلم اللدُنِّى ، ورخص سعره ، حتى ادَّعت كل طائفة أن علمهم لدُنِّى . وصار مَن تكلم فى حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له ، ويُلقيه شيطانه فى قلبه ، يزعم أنَّ علمه لدُنِّى !! فملاحدة الاتحادية ، وزنادقة المنتمين إلى السلوك يقولون : إن علمهم لدُنِّى ! وقد صنَّف فى العلم اللدُنِّى متهوكو المتكلمين ، وزنادقة المتصوفين ، وجهلة المتفلسفين ، وكلٌ يزعم أن علمه لدُنِّى ! وصدقوا وكذبوا ، فإن « اللدُنِّى » منسوب إلى « لَدُن » بمعنى « عند » فكأنهم قالوا : العلم العندى ، ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لَدُنه ، وقد ذمَّ الله تعالى بأبلغ الذم مَن ينسب إليه ما ليس من عنده كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ

---

(١) آل عمران : ٧٨

الله ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ (٢) ، فكل مَن قال : هذا العلم من عند الله - وهو كاذب فى هذه النسبة - فله نصيب وافر من هذا الذم . وهذا فى القرآن كثير ، يذم الله سبحانه مَن أضاف إليه ما لا علم به ، ومَن قال عليه ما لا يعلم . ولهذا رتب سبحانه المحرَّمات أربع مراتب ، وجعل أشدها القول عليه بلا علم ، فجعله آخر مراتب المحرَّمات التى لا تُباح بحال (٣) ، بل هى محرَّمة فى كل مِلَّة ، وعلى لسان كل رسول ، فالقائل : إن هذا « علم لَدُنِّى » لما لا يعلم به من عند الله ، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده : كاذب مفترٍ على الله ، وهو من أظلم الظالمين ، وأكذب الكاذبين » (٤) .

على أن كثيراً من الصوفية المتأخرين رفضوا حجية الإلهام .

قال العلامة الآلوسى فى تفسيره عند قصة الخضر من سورة الكهف : « وممن صرَّح بأن الإلهام ليس بحُجَّة من الصوفية : الإمام الشعرانى ، وقال : قد زلَّ فى هذا الباب خلق كثير فضلُّوا وأضلُّوا ، ولنا فى ذلك مؤلَّف سميته « حد الحسام فى عنق مَن أطلق إيجاب العمل بالإلهام » وهو مجلد لطيف » (٥) . أ هـ .

فمن احتج بالإلهام على حكم شرعى فاحتجاجه مردود عليه (٦) .

وسننقل الكثير عن المعتدلين من الصوفية فيما بعد .

* * *

---

(١) البقرة : ٧٩ (٢) الأنعام : ٩٣

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٣) .

(٤) مدارج السالكين : ٣/ ٤٣١ - ٤٣٣ (٥) روح المعانى للألوسى : ١٦/ ١٧

(٦) قال العلامة ابن حجر الهيثمى الشافعى فى « التحفة » : « وقع لليافعى - مع =

٤ - التفرقة بين الشريعة والحقيقة

إن اعتداد كثير من الصوفية بأذواقهم وخواطر نفوسهم ، وما يعرض لهم من إلهام وكشف ، وادعاء بعضهم العصمة لهذه الإلهامات والخواطر ، قد انتهى بطائفة منهم إلى الوقوع فى ضلالات عدة .

فمنها : تفرقتهم بين « الشريعة » التى يجىء بها النص ، و« الحقيقة » التى يجىء بها الكشف ، واعتبارهم الأُولى من نصيب العوام ، والثانية من حظ

= جلالته - فى روضه : لو أذن الله تعالى لبعض عباده أن يلبس ثوب حرير مثلاً ، وعَلِم الإذن يقيناً ، فلبسه ، لم يكن منتهكاً للشرع ، وحصول اليقين له من حيث حصوله للخضر بقتله الغلام ، إذ هو ولىّ لا نبىّ على الصحيح » . أ هـ .

قال : وقوله : « مثلاً » ربما يدخل فيه بعض المتصوفة الذى ذكره الغزالى « أن له مع الله حالاً أسقط عنه نحو الصلاة أو تحريم شرب الخمر . . . » إلخ .

وبفرض أن اليافعى لم يرد بـ « مثلاً » إلا ما هو مثل الحرير فى أن استحلاله غير مُكفِّر ، لعدم علمه ضرورة ، فإن أراد بعدم انتهاكه للشرع : أن له نوع عذر ، وإن كنا نقضى عليه بالإثم ، بل والفسق إن أراد ذلك ، فله نوع اتجاه .

أو أنه لا حُرمة عليه فى لبسه ، كما هو الظاهر من سياق كلامه فهو زلّة منه ، لأن ذلك اليقين إنما يكون بالإلهام ، وهو ليس بحُجَّة عند الأئمة ، إذ لا ثقة بخواطر مَن ليس بمعصوم .

وبفرض أنه حُجَّة ، فشرطه - عند مَن شذَّ بالقول به - ألا يعارضه نص شرعى ، كالنص بمنع لبس الحرير المجمَع عليه ، إلا مَن شذ ممن لا يُعتدّ بخلافه فيه .

وبتسليم أن الخضر ولىّ - وإلا فالأصح أنه نبىّ - فمن أين لنا أن الإلهام لم يكن حُجَّة فى ذلك الزمن ؟

وبفرض أنه غير حُجَّة ، فالأنبياء ، فى زمنه موجودون ، فلعل الإذن فى قتل الغلام جاء إليه على يد أحدهم (انتهى من تحفة المحتاج لابن حجر الهيثمى : ٤/ ٨٤) .

الخواص ، ومما يقولونه فى ذلك : مَن نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ، ومَن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم !

وقد يُعتبر العمل معصية بل كبيرة فى نظر أهل الشريعة ، على حين يُعَد مباحاً بل قُربة فى نظر أهل الحقيقة !

* *

● **قصة موسى والخضر :**

ويستدلون على هذه التفرقة بقصة موسى والخضر ، التى ذكرها الله فى سورة الكهف . فقد كان موسى ينظر بعين الشريعة فأنكر خرق السفينة ، وقَتْل الغلام بغير جناية ، وإقامة الجدار لقوم لا يستحقون إكراماً ولا معونة . وكان الخضر ينظر بعين الحقيقة ، ولهذا بيَّن لموسى ما وراء كل فعلة من هذه الفعلات من أسرار وغيوب ، فسلَّم موسى للخضر ؛ لأن موسى لم يكن معه إلا علم الظاهر ، علم الشريعة ، والخضر معه علم الباطن ، وهو علم الحقيقة .

والعلم الذى عند الخضر لم يأت نتيجة تعلم ولا اكتساب ، إنما هو علم وهبى من لَدُن الله مباشرة وبلا واسطة ، ويسمونه « العلم اللدنّى » أخذاً من قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ (١) .

ومن هنا جاء عن بعض المتصوفة احتقارهم لعلم الشرع ، الذى يُعرف من النصوص ، ويُطلب من العلماء ، ويُروَى بالأسانيد ، ويسمونه « علم الورق » .

وإنما يعنيهم علم « الباطن » أو « الحقيقة » أو « العلم اللدنّى » كما يسمونه ، علم الخضر لا علم موسى ، علم « أصحاب الأذواق » لا علم « أصحاب الأوراق » . علم الصوفية لا علم المحدّثين والفقهاء .

بل قال بعضهم : إن العلم حجاب بين صاحبه وبين الله !!

---

(١) الكهف : ٦٥

ولا ريب أن هذا جهل مبين ، وغرور قبيح ، وشرود عن الصراط المستقيم ، الذى سار عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه الكرام ، ومَن تبعهم بإحسان ، بل سار عليه سادة الصوفية الأوائل أنفسهم .

وقد بيَّن الإمام الشاطبى فى « الموافقات » أن الشريعة عامة لكل المكلَّفين فى كل الأحوال .

فلا يخرج عنها ولى ولا غيره بدعوى الكشف أو غيره ، وأن العوائد الجارية ضرورية الاعتبار شرعاً ، فليس الاطلاع على المغيبات ولا الكشف الصحيح بالذى يمنع جريانها على مقتضى الأحكام العادية . والقدوة فى ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم ما جرى عليه السَلَف الصالح رضى الله عنهم .

ثم تعرَّض لقصة « الخضر » التى يحتج بها قوم على جواز الخروج عن ظاهر الشريعة لمن سموهم الأولياء ، أو أهل الكشف ، وقد نقلنا قوله فى ردنا على القول بحجية الإلهام .

وهم يسمون صاحب العلم الشرعى « عالماً » ويسمون صاحب الكشف الصوفى « عارفاً » ، فالعلم عندهم كسبى استدلالى ، و« المعرفة » وهبية ضرورية – وهى العلم اللدنِّى – والعلم له الخبر ، والمعرفة لها العيان .

ومثال هذا : أنك إذا رأيت فى حومة ثلج ثقباً خالياً ، استدللتَ به على أن تحته حيواناً يتنفس ، فهذا علم . فإذا حفرته وشاهدتَ الحيوان ، فهذه معرفة .

ولا مشاحة فى الاصطلاح ، فلكل طائفة أن تصطلح على ما تتفاهم به ، بشرط أن تتضح المدلولات ، وتتحدد المفاهيم ، ولكن الخطر هنا هو تحقير « العالِم » وتقديس « العارِف » ، أو اعتبار ما يجىء من طريق المعرفة معصوماً ، وما يجىء من طريق العلم مظنوناً أو مرفوضاً .

وذلك كقول بعض المنحرفين : « العالِم يُسعطك الخل والخردل ، والعارِف ينشقك المسك والعنبر » !

قال : ومعنى هذا : أنك مع العالِم فى تعب ، ومع العارِف فى راحة ، العارف يبسط عذر العوالم والخلائق ، والعالم يلوم . وقد قيل : مَن نظر إلى الخلق بعين « العلم » مقتهم ، ومَن نظر إليهم بعين « المعرفة » عذرهم !! (١) .

يقول الإمام ابن القيم معقباً على هذا الكلام الخطير :

« فانظر ما تضمنه هذا الكلام – الذى ملمسه ناعم ، وسمه زعاف قاتل – من الانحلال عن الدين ، ودعوى الراحة من حكم العبودية ، والتماس الأعذار لليهود والنصارى وعُبَّاد الأوثان ، والظلَمة والفجَرة ، وأن أحكام الأمر والنهى – الواردين على ألسن الرسل – للقلوب بمنزلة سعط الخل والخردل ، وأن شهود الحقيقة الكونية الشاملة للخلائق ، والوقوف عليها ، والانقياد لحكمها ، بمنزلة تنشيق المسك والعنبر .

فليهن الكفارَ والفجارَ والفساقَ ، انتشاقُ هذا المسك والعنبر إذا شهدوا هذه الحقيقة وانقادوا لحكمها !

ويا رحمة للأبرار المحكمين لما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – من كثرة سعوطهم بالخل والخردل !

فإن قوله – صلى الله عليه وسلم – هذا يجوز ، وهذا لا يجوز . . وهذا حلال وهذا حرام ، وهذا يُرضى الله ، وهذا يُسخطه : خل وخردل عند هؤلاء الملاحدة ، وإلا فالحقيقة تُشهدك الأمر بخلاف ذلك .

---

(١) أذكر أنى قرأت هذا النص فى قسم التصوف من كتاب « الإشارات والتنبيهات » لابن سينا .

ولذلك إذا نظرت – عندهم – إلى الخلق بعين الحقيقة عذرت الجميع . فتعذر مَن توعَّده الله ورسوله أعظم الوعيد ، وتهدده أعظم التهديد .

ويالله العجب ! إذا كانوا معذورين فى الحقيقة ، فكيف يُعذِّب الله سبحانه المعذور ، ويُذيقه أشد العذاب ؟

وهلا كان الغنى الرحيم أولى بعذره من هؤلاء ؟ » اهـ [1] .

* *

● **كلام الآلوسى :**

ومن المتأخرين الذين عنوا بدراسة موضوع الإلهام : العلامة شهاب الدين الآلوسى ، وذلك فى تفسيره المعروف باسم « روح المعانى » ، وفى سورة الكهف عند ذكر قصة الخضر عليه السلام ، ونقل نقولاً مهمة فى الموضوع عن الصوفية المعتبرين ، يحسن بنا أن نسجلها هنا .

قال رحمه الله : « استدل بقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ [2] القائلون بنبوته – أى الخضر – عليه السلام ، وهو ظاهر فى ذلك ، واحتمال أن يكون هناك نبى أمره بذلك عن وحى – كما زعمه القائلون بولايته – احتمال بعيد ، على أنه ليس فى وصفه بقوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ [3] على هذا كثير فائدة .

بل قد يقال : أى فائدة فى هذا العلم اللدنِّى إذا احتاج فى إظهار العجائب لموسى عليه السلام إلى توسيط نبى مثله .

وقال بعضهم : كان ذلك عن إلهام ، ويلزمه القول بأن الإلهام كان حُجَّة فى بعض الشرائع ، وأن الخضر من المكلَّفين بتلك الشريعة ، وإلا فالظاهر أن حجيته ليست فى شريعة موسى عليه السلام ، وكذا هو ليس بحُجَّة فى

---

(١) مدارج السالكين : ٣/ ١٦٧ (٢) الكهف : ٨٢ (٣) الكهف : ٦٥

شريعتنا على الصحيح ، ومَن شذَّ وقال بحجيته : اشترط لذلك أن لا يعارضه نص شرعى . فلو أطلع الله تعالى بالإلهام بعض عباده ، على نحو ما أطلع عليه الخضر عليه السلام من حال الغلام ، لم يحل له قتله .

وما أخرجه الإمام أحمد عن عطاء أنه قال : كتب نجدة الحرورى إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان ، فكتب إليه : « إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم » ، إنما قصد به ابن عباس - كما قال السبكى - المحاجة والإحالة على ما لم يمكن ، قطعاً لطمعه فى الاحتجاج بقصة الخضر ، وليس مقصوده رضى الله تعالى عنه : أنه إن حصل ذلك يجوز القتل . .

فما قاله اليافعى فى روضه من أنه لو أذن الله تعالى لبعض عباده أن يلبس ثوب حرير مثلاً ، وعلم الإذن يقيناً فلبسه ، لم يكن منتهكاً للشرع ، وحصول اليقين له من حيث حصوله للخضر بقتله للغلام ، إذ هو ولى لا نبى على الصحيح . أ هـ . - عثرة يكاد أن لا يقال لصاحبها : لعا ، لأن مظنة حصول اليقين اليوم الإلهام ، وهو ليس بحُجَّة عند الأئمة ، ومَن شذَّ اشترط ما اشترط ، وحصوله بخبر عيسى عليه السلام إذا نزل متعذر ؛ لأنه عليه السلام ينزل بشريعة نبينا ﷺ ، ومن شريعته تحريم لبس الحرير على الرجال إلا للتداوى . وما ذكره من نفى نبوة الخضر لا يُعوَّل عليه ولا يُلتفَت إليه .

قال الآلوسى : وممن صرَّح بأن الإلهام ليس بحُجَّة من الصوفية الإمام الشعرانى وقال : قد زلَّ فى هذا الباب خلق كثير فضَلُّوا وأضَلُّوا ، ولنا فى ذلك مؤلف سميته « حد الحسام فى عنق مَن أطلق إيجاب العمل بالإلهام » ، وهو مجلد لطيف . أ هـ .

وقال أيضاً فى كتابه المسمى بـ « الجواهر والدرر » : قد رأيت من كلام الشيخ محيى الدين قُدِّس سره ما نصه : اعلم أنَّا لا نعنى بملك الإلهام حيث أطلقناه إلا الدقائق الممتدة من الأرواح الملكية لا نفس الملائكة ، فإن المَلَك لا ينزل بوحى محل غير قلب نبى أصلاً ، ولا يأمر بأمر إلَهى جملة واحدة ،

فإن الشريعة قد استقرت وتبين الفرض والواجب وغيرهما ، فانقطع الأمر الإلَهى بانقطاع النبوة والرسالة ، وما بقى أحد يأمره الله تعالى بأمر يكون شرعاً مستقلاً يُتعبد به أبداً ؛ لأنه إن أمره بفرض كان الشارع قد أمر به ، وإن أمر بمباح فلا يخلو إما أن يكون ذلك المباح المأمور به صار واجباً أو مندوباً فى حقه ، فهذا عَيْن نسخ الشرع الذى هو عليه ، حيث صيَّر المباح الشرعى واجباً أو مندوباً ، وإن أبقاه مباحاً كما كان ، فأى فائدة للأمر الذى جاء به مَلَك الإلهام لهذا المدعى ؟! فإن قال : لم يجئنى مَلَك الإلهام بذلك ، وإنما أمرنى الله تعالى بلا واسطة قلنا : لا يُصدَّق فى مثل ذلك ، وهو تلبيس من النفس ، فإن ادعى أن الله سبحانه كلَّمه كما كلَّم موسى عليه السلام فلا قائل به ، ثم إنه تعالى لو كلَّمه ما كان يلقى إليه فى كلامه إلا علوماً وأخباراً ، لا أحكاماً وشرعاً ولا يأمره أصلاً . أ هـ .

* *

● من كلمات مجدد الألف الثانى :

قال الآلوسى وقد صرَّح الإمام الربَّانى مجدد الألف الثانى [1] فى « المكتوبات » فى مواضع عديدة بأن الإلهام لا يُحل حراماً ولا يُحرِّم حلالاً ، ويُعلم من ذلك أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة ، والظاهر والباطن ، وكلامه - قُدِّس سره - فى « المكتوبات » طافح بذلك .

ففى المكتوب الثالث والأربعين من الجلد الأول :

أن قوماً مالوا إلى الإلحاد والزندقة ، يتخيلون أن المقصود الأصلى وراء الشريعة ، حاشا وكلا ، ثم حاشا وكلا . نعوذ بالله سبحانه من هذا الاعتقاد

---

(١) هو الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى ، مجدد الإسلام فى الهند فى عصره ، والمؤثر فى ملوكها ، ومغير طريقتهم من الانحراف عن الإسلام والعداء له إلى الولاء له والالتزام بأحكامه ، ذكره الشيخ أبو الحسن الندوى فى رسالته « نحو منهج أفضل للإصلاح » ، وذكره المودودى فى رسالة « موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه » ، وترجم له الزركلى فى الأعلام (توفى سنة ١٠٣٤ هـ - ١٦٢٥ م) .

السوء ، فكل من الطريقة والشريعة عيْن الآخر ، لا مخالفة بينهما بقدر رأس الشعيرة ، وكل ما خالف الشريعة مردود ، وكل حقيقة ردتها الشريعة فهى زندقة !

وقال فى أثناء المكتوب الحادى والأربعين من الجلد الأول أيضاً فى مبحث الشريعة والطريقة والحقيقة : مثلاً عدم نطق اللسان بالكذب شريعة ، ونفى خاطر الكذب عن القلب ؛ إن كان بالتكلف والتعمل فهو طريقة ، وإن تيسر بلا تكلف فهو حقيقة . ففى الجملة : الباطن - الذى هو الطريقة والحقيقة - مكمل الظاهر ، الذى هو الشريعة . فالسالكون سبيل الطريقة والحقيقة إن ظهر منهم فى أثناء الطريق أمور ظاهرها مخالف للشريعة ومناف لها ، فهو من سكر الوقت ، وغلبة الحال ، فإذا تجاوزوا ذلك المقام ورجعوا إلى الصحو ، ارتفعت تلك المنافاة بالكلية ، وصارت تلك العلوم المضادة بتمامها هباءً منثوراً .

وقال - نفعنا الله تعالى بعلومه - فى أثناء المكتوب السادس والثلاثين من الجلد الأول أيضاً :

للشريعة ثلاثة أجزاء : علم وعمل وإخلاص ، فما لم تتحقق هذه الأجزاء لم تتحقق الشريعة ، وإذا تحققت الشريعة حصل رضا الحق سبحانه وتعالى ، وهو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية ، ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [1] ، فالشريعة متكفلة بجميع السعادات ، ولم يبق مطلب وراء الشريعة ، فالطريقة والحقيقة اللتان امتاز بهما الصوفية كلتاهما خادمتان للشريعة فى تكميل الجزء الثالث ، الذى هو الإخلاص ، فالمقصود منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء ذلك . . . . إلى آخر ما قال .

وقال عليه الرحمة فى أثناء المكتوب التاسع والعشرين من الجلد المذكور بعد تحقيق كثير :

---

(١) التوبة : ٧٢

فتقرر أن طريق الوصول إلى درجات القرب الإلهى - سواء أكان قُرب النبوة أو قُرب الولاية - منحصر فى طريق الشريعة التى دعا إليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصار مأموراً بها فى آية : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُواْ إِلَى اللهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [1] ، وآية : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [2] تدل على ذلك أيضاً ، وكل طريق سوى هذا الطريق ضلال ، ومنحرف عن المطلوب الحقيقى ، وكل طريقة ردَّتها الشريعة فهى زندقة ، وشاهد ذلك آية: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ﴾ [3] ، وآية : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ ﴾ [4] ، وآية : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ [5] ، وحديث : « خط لنا النبى ﷺ .... » الخبر [6] ، وحديث : « كل بدعة ضلالة » [7] ، وأحاديث أُخر إلى آخر ما قال عليه رحمة الملك المتعال .

---

(١) يوسف : ١٠٨ (٢) آل عمران : ٣١

(٣) تتمتها : ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ، وَلا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام : ١٥٣) .

(٤) يونس : ٣٢

(٥) تتمتها : « فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) .

(٦) يشير إلى حديث ابن مسعود : « خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ، ثم قال : «هذا سبيل الله » ، ثم خط خطوطاً عن يمينه ، وعن شماله ، ثم قال : « وهذه سبل (متفرقة) على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ﴾ .... الآية » ، رواه أحمد (٤١٤٢) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح، ورواه الحاكم : ٢/ ٢٣٩ ، وصححه ووافقه الذهبى .

(٧) جزء من حديث العرباض بن سارية المعروف الذى رواه أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذى ، وقال : حسن صحيح (٢٦٧٨) ، وابن ماجه (٤٢) ، وابن حبان (الاحسان: ٥) ، والحاكم (١/ ٩٥ - ٩٧) كما رواه أحمد : ٤/ ١٢٦ ، ١٢٧ ، وهو من أحاديث الأربعين النووية . الحديث الثامن والعشرون (٢/ ١٠٩) .

وقال قُدِّس سره فى معارف الصوفية :

« اعلم أن معارف الصوفية وعلومهم فى نهاية سيرهم وسلوكهم ، إنما هى علوم الشريعة ، لا أنها علوم أُخر غير علوم الشريعة ، نعم يظهر فى أثناء الطريق علوم ومعارف كثيرة ، ولكن لا بد من العبور عنها . ففى نهاية النهايات علومهم علوم العلماء ، وهى علوم الشريعة » .

وقال أيضاً : « اعلم أن الشريعة والحقيقة متحدان فى الحقيقة ، ولا فرق بينهما إلا بالإجمال والتفصيل ، وبالاستدلال والكشف ، وبالغيب والشهادة ، وبالتعمل وعدم التعمل . وللشريعة من ذلك الأول ، وللحقيقة الثانى . وعلامة الوصول إلى حقيقة حق اليقين : مطابقة علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها ، وما دامت المخالفة موجودة ولو أدنى شعرة فذلك دليل على عدم الوصول . وما وقع فى عبارة بعض المشايخ من أن الشريعة قشر والحقيقة لُب فهو – وإن كان مشعراً بعدم استقامة قائله – ولكن يمكن أن يكون مراده أن المجمل بالنسبة إلى المفصَّل حكمه حكم القشر بالنسبة إلى اللُّب ، وأن الاستدلال بالنسبة إلى الكشف كذلك ، والأكابر المستقيمة أحوالهم لا يُجوِّزون الإتيان بمثل هذه العبارات الموهمة » . أ هـ .

* *

● من كلمات كبار الصوفية :

قال الألوسى : وقال سيدى القطب الربانى الشيخ عبد القادر الكيلانى : جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله تعالى ورسوله ﷺ ، ولا يعملون إلا بظاهرهما .

وقال سيد الطائفة الجنيد : الطرق كلها مسدودة إلا على مَن اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال أيضاً : مَن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به فى هذا العلم ؛ لأن علمنا مُقيَّد بالكتاب والسُّنَّة .

وقال السرى السقطى : التصوف اسم لثلاثة معان وهو : لا يطفىء نُور معرفته نورَ ورعه ، ولا يتكلم بسر باطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله .

وقال أيضاً قُدِّس سره : مَن ادَّعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم ، فهو غالط .

وقال أبو الحسين النورى : مَنِ رأيته يدَّعى مع الله تعالى حالة تُخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربه ، ومَن رأيته يدَّعى حالة لا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه .

وقال أبو سعيد الخراز : كل فيض باطن يخالفه ظاهر فهو باطل .

وقال أبو العباس أحمد الدينورى : لسان الظاهر لا يُغيِّر حكم الباطن .

وفى التحفة لابن حجر : قال الغزالى : مَن زعم أن له مع الله تعالى حالاً أسقط عنه نحو الصلاة أو تحريم شرب الخمر وجب قتله ، وإن كان فى الحكم بخلوده فى النار نظر ، وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر ؛ لأن ضرره أكثر !

قال ابن حجر الهيثمى : ولا نظر فى خلوده ؛ لأنه مرتد لاستحلاله ما عُلمت حُرمته ، أو نفيه وجوبَ ما عُلِم وجوبه ضرورة فيهما ، ومن ثَمَّ جزم فى الأنوار بخلوده .

وقال فى الإحياء : مَن قال إن الباطن يخالف الظاهر ، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان ، إلى غير ذلك . وفى رسالة القشيرى طرف منه .

قال الآلوسى : والذى ينبغى أن يُعلم أن كلام العارفين المحققين ، وإن دل على أنه لا مخالفة بين الشريعة والطريقة والحقيقة فى الحقيقة ، لكنه يدل أيضاً على أن فى الحقيقة كشوفاً وعلوماً غيبية ، ولذا تراهم يقولون : علم الحقيقة هو العلم اللدنِّى ، وعلم المكاشفة ، وعلم الموهبة ، وعلم الأسرار ، والعلم المكنون ، وعلم الوراثة ، إلا أن هذا لا يدل على المخالفة ، فإن الكشوف والعلوم الغيبية ثمرة الإخلاص ، الذى هو الجزء الثالث من أجزاء الشريعة ، فهى بالحقيقة مترتبة على الشريعة ونتيجة لها ، ومع هذا لا تغير تلك الكشوف

والعلوم الغيبية حكماً شرعياً ، ولا تُقيِّد مطلقاً ، ولا تُطلِق مقيَّداً ، خلافاً لما توهمه « ساجقلى زاده » ، حيث قال فى شرح عبارة « الإحياء » السابقة آنفاً : يريد الغزالى من الباطن ما ينكشف لعلماء الباطن من حلٍّ بعض الأشياء لهم ، مع أن الشارع حرَّمه على عباده مطلقاً ، فيجب أن يقال : إنما انكشف حلُّه لهم لما انكشف لهم من سبب خفى يُحلِّله لهم ، وتحريم الشارع تعالى ذلكَ على عباده مُقيَّد بانتفاء انكشاف السبب المحلِّل لهم ، فمَن انكشف له ذلك السبب حلَّ له ، ومَن لا فلا !

لكن الشارع سبحانه حرَّمه على عباده على الإطلاق ، وترك ذلك القيد لندرة وقوعه ، إذ مَن ينكشف له قليل جداً . مثاله : انكشاف محلل خرق السفينة ، وقتل الغلام ، للخضر عليه السلام ، فحلَّ له بذلك الانكشاف الخرق والقتل ، وحلهما له مخالف لإطلاق نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أُمته عن الضرر ، وعن قتل الصبى ، لكنهما مُقيَّدان ، فالأول مُقيَّد بما إذا لم يعلم هناك غاصب مثلاً ، والثانى بما إذا لم يعلم أن الصبى سيصير ضالاً مضلاً ، لكن الشارع ترك القيدين لنُدرة وقوعهما ، واعتماداً على فهم الراسخين فى العلم إياهما . . . . إلى آخر ما قال ، فإن النصوص السابقة تنادى بخلافه كما سمعت .

ثم إن تلك الغيوب والمكاشفات ، بل سائر ما يحصل للصوفية من التجليات ، ليست من المقاصد بالذات ، ولا يقف عندها الكامل ، ولا يلتفت إليها ، وقد ذكر الإمام الربانى فى المكتوب السادس والثلاثين المتقدم نقل بعضه : أنها تُربَّى بها أطفال الطريق ! وأنه ينبغى مجاوزتها ، والوصول إلى مقام الرضا ، الذى هو نهاية مقامات السلوك ، وهو عزيز لا يصل إليه إلا واحد من ألوف ، ثم قال : إن الذين هم قليلو النظر يعدون الأحوال والمواجيد ، من المقامات والمشاهدات والتجليات من المطالب ، فلا جَرَم بقوا فى قيد الوهم والخيال ، وصاروا محرومين من كمالات الشريعة . .

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (١) . أ هـ .

* *

● **موقف الكاملين فى الشريعة :**

قال العلامة الآلوسى : ويُعلم منه أن الكاملين فى الشريعة يعبرون على ذلك ، ولا يلتفتون إليه ، ولا يعدونه مقصداً ، وجُلُّ مقصدهم تحصيل مقام الرضا .

وقد يُحجب الكامل عن جميع ذلك ، ويُلحق من هذه الحيثية بعوام الناس ، ويُعلم مما ذكر أن موسى عليه السلام أكمل من الخضر ، وأعلميّة الخضر عليه السلام بعلم الحقيقة ، كانت بالنسبة إلى الحالة الحاضرة ، فإن موسى عليه السلام عبر على ذلك ، ولم يقف عنده ؛ لأنه فى مقام التشريع ، ولعل طلبه التعليم كان بالأمر ابتلاءً له بسبب تلك الفلتة .

وقد ذكروا : أن الكامل كلما كان صعوده أعلى ، كان هبوطه أنزل ، وكلما كان هبوطه أنزل ، كان فى الإرشاد أكمل ، وفى الإفاضة أتم ، لمزيد المناسبة حينئذ بين المرشد والمسترشد .

ولهذا قالوا - فيما يُحكى - : إن الحسن البصرى وقف على شط نهر ينتظر سفينة ، فجاء حبيب العجمى فقال له : ما تنتظر ؟ فقال : سفينة ، فقال : أى حاجة إلى السفينة ؟ أما لكَ يقين ؟ فقال الحسن : أما لكَ علم ؟ ثم عبر حبيب على الماء بلا سفينة ، ووقف الحسن - إن الفضل للحسن ، فإنه كان جامعاً بين علم اليقين وعَيْن اليقين ، وعرف الأشياء كما هى وفى نفس الأمر ، وجعلت القدرة مستورة خلف الحكمة ، والحكمة فى الأسباب ، وحبيب صاحب سُكْر ، لم ير الأسباب ، فعومل برفعها .

---

(١) الشورى : ١٣

ومن هنا يظهر سر قِلَّة الخوارق فى الصحابة ، مع قول الإمام الربانى : إن نهاية أويس سيد التابعين بداية وحشى قاتل حمزة يوم أسلم ، فما الظن بغير أويس مع غير وحشى ؟

قال الآلوسى : وأنا أقول : إن الكامل وإن كان مَن علمت إلا أن فوقه الأكمل وهو مَن لم يزل صاعداً فى نزوله ، ونازلاً فى صعوده ، وليس ذلك إلا رسول الله ﷺ ، ولولا ذلك ما أمد العالَم العلوى والسفلى ، وهذا مرجع الحقيقة والشريعة له عليه الصلاة والسلام على الوجه الأتم ، كما أشرنا إليه سابقاً ، والحمد لله تعالى على أن جعلنا من أُمَّته وذُرِّيته .

ولا يعكر على ما ذكرنا ما قاله الإمام الغزالى فى « الإحياء » وهو : أن علم الآخرة قسمان : علم مكاشفة ، وعلم معاملة . أما علم المكاشفة فهو علم الباطن ، وهو غاية العلوم ، وهو علم الصِّدِّيقين والمقرَّبين ، وهو عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من الصفات المذمومة ، وينكشف بذلك ما كان يسمع من قبل أسماءها ، ويتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك ، حتى تحصل المعرفة بذات الله تعالى وبصفاته التامات ، وبأفعاله وبحكمته فى خلق الدنيا والآخرة . أ هـ ، لأن المراد أن ذلك من علم الباطن الذى هو علم الحقيقة ، وهذا البعض لا يمكن أن يخلو منه نبى . كيف ورتبة الصِّدِّيقين دون رتبة الأنبياء عليهم السلام ، كما قرروه فى آية : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

ومما ذكرنا - من عدم المخالفة بين الشريعة والحقيقة - يُعلم ما فى كلام البلقينى فى دفع ما استشكله من قول الخضر لموسى عليهما السلام : « إنى على علم » (٢) .... الحديث السابق ، حيث زعم أنه يدل بظاهره على امتناع

---

(١) النساء : ٦٩ (٢) تتمة : من علم الله علَّمنيه الله لاتعلمه ، وإنك على علم من علم الله علمكه اللَّه لا أعلمه » وهو فى الصحيحين من حديث ابن عباس .

تعليم العلمين معاً ، مع أنه لا يمتنع . وأجاب بأن علم الكشوف والحقائق ينافى علم الظاهر ، فلا ينبغى للعالم الحاكم بالظاهر أن يعلّم الحقائق للتنافى ، وكذا لا ينبغى للعالم بالحقيقة أن يعلم العلم الظاهر ، والذى ليس مكلّفاً به ، وينافى ما عنده من الحقيقة » . أ هـ .

ولعمرى لقد أخطأ فيما قال ، وبالحق تعرف الرجال ، وكأنه لم يعتمد عليه ، فأردفه بجواب آخر ، هو خلاف الظاهر .

وأنت تعلم أنه لا حاجة إلى شيء من ذلك والاستشكال من ضعف النظر .

ثم إن قصة الخضر عليه السلام لا تصلح حُجَّة لمن يزعم المخالفة بين العلمين ، فإن أعظم ما يشكل فيها قتل الغلام ، لكونه طُبِع كافراً ، وخشى من بقائه حياً ارتداد أبويه ، وذلك أيضاً شريعة ، لكنها مخصوصة به عليه السلام ؛ لأنه كما قال العلامة السبكى : أُوحى إليه أن يعمل بالباطن ، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة ، فلا إشكال فيه ، وإن علِم من شريعتنا : أنه لا يجوز لأحد -كائناً مَن كان - قتل صغير ، لا سيما بين أبوين مؤمنين ، وكيف يجوز قتله بسبب لم يحصل ، والمولود لا يوصف بكفر حقيقى ولا إيمان حقيقى ؟ واتفاق الشرائع فى الأحكام ، مما لم يذهب إليه أحد من الأنام ، فضلاً عن العلماء الأعلام .

وهذا ظاهر على القول بنبوته ، وأما على القول بولايته فيقال : إن عمل الولى بالإلهام كان إذ ذاك شرعاً ، أو كما قيل : إنه أُمر بذلك على يد نبى غير موسى عليه السلام .

وأما إقامة الجدار بلا أجر فلا إشكال فيها ؛ لأنها إحسان ، وغاية ما يتخيل أنه للمسيء فليكن كذلك ، ولا ضير ، فإنه من مكارم الأخلاق .

وأما خرق السفينة لتسلم من غصب الظالم فقد قالوا : إنه مما لا بأس به ، حتى قال العز بن عبد السلام : إنه إذا كان تحت يد الإنسان مال يتيم أو سفيه أو مجنون ، وخاف عليه أن يأخذه ظالم ، يجب عليه تعييبه لأجل حفظه ،

وكان القول قول مَن عيَّب مال اليتيم ونحوه إذا نازعه اليتيم ونحوه بعد الرشد ونحوه في أنه فعله لحفظه على الأوجه ، كما قاله القاضى زكريا فى « شرح الروض » قبيل باب الوديعة .

ونظير ذلك ما لو كان تحت يده مال يتيم مثلاً ، وعلم أنه لو لم يبذل منه شيئاً لقاضى سوء لانتزعه منه ، وسلّمه لبعض الخونة ، وأدَّى ذلك إلى ذهابه ، فإنه يجب عليه أن يدفع إليه شيئاً ، ويتحرى فى أقل ما يمكن إرضاؤه به ، ويكون القول قوله أيضاً .

وقال بعضهم : قصارى ما تدل عليه القصة ثبوت العلم الباطن ، وهو مسلَّم ، لكن إطلاق الباطن عليه إضافى كما تقدَّم ، وكان فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا العلماء بالله تعالى ، فإذا قالوه لا ينكره إلا أهل الغرة بالله تعالى » (١) إشارة إلى ذلك ، والمراد بأهل الغرة : علماء الظاهر الذين لم يؤتوا ذلك .

وبعض مثبتيه يستدلون بقول أبى هريرة : « حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءين من العلم ، فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته لقُطِع منى هذا البلعوم » (٢) ، واستدل به أيضاً على المخالفة بين العلمين » . .

وأنت تعلم أنه يحتمل أن يكون أراد بالآخر الذى لو بثه لقُتِل : علم الفتن ، وما وقع من بنى أمية ، وذم النبى ﷺ لأناس معينين منهم ، ولا شك أن بث ذلك فى تلك الأعصار يجر إلى القتل .

وعلى تسليم أنه أراد به العلم الباطن المسمى بعلم الحقيقة ، لا نُسلِّم أن قطع البلعوم منه على بثه لمخالفته للعلم الظاهر فى نفس الأمر ، بل لتوهم مَن بيده الحل والعقد والأمر والنهى - من أمراء ذلك الزمان - المخالفة ، فافهم » (٣) .

* * *

(١) قال العراقى فى تخريج الإحياء : رواه أبو عبد الرحمن السلمى فى الأربعين له فى التصوف عن أبى هريرة بإسناد ضعيف

(٢) رواه البخارى فى كتاب العلم موقوفا على أبى هريرة .

(٣) انظر تفسير روح المعانى للآلوسى : جـ ١٦/١٧ - ٢٢

٥ - اعتبار الصوفية الكشف هو غاية الغايات واتخاذهم إليه طرقاً غير شرعية

ومن الانحرافات التى وقع فيها الصوفية فى موضوع الكشف والإلهام والفيض : اعتبارهم ذلك هو الغاية التى إليها يشمرون ، وعليها يحرصون ، فكأنما عبادتهم وذكرهم لحظ أنفسهم فيما يرد عليهم من فيض ، وما يتجلى لهم من كشف ، لا لحق ربهم عليهم ، وواجب عبوديتهم له ، كما أنهم يسلكون إلى هذه الغاية طريقاً لم يشرعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا أمر به ، ولا سلكه أصحابه ، وتابعوهم بإحسان .

وأبلغ مَن عبَّر عن ذلك هو الإمام الغزالى فى « الإحياء » ، وقد أطال فى ذلك وأفاض ، ولا بد لنا أن ننقل أهم كلامه هنا لنناقشه فيه -رضى الله عنه .

● موقف الإمام الغزالى من الكشف والإلهام :

أحسن الإمام أبو حامد الغزالى حين جعل « كتاب العلم » أول كتاب فى موسوعته الشهيرة « إحياء علوم الدين » التى تحوى فى الحقيقة أربعين كتاباً موزعة على أرباع أربعة : فى العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات .

كما أنه جعل « العلم » فى آخر كتاب صنفه - وهو « منهاج العابدين » - أول « عقبة » يجب أن يجتازها العابد أو السالك فى طريقه إلى مرضاة ربه .

وقد أفاض فى كتاب العلم من « الإحياء » عن فضيلة العلم والتعلم والتعليم وما يتعلق به ، وتكلم عن العلم المحمود والعلم المذموم ، والعلم المفروض طلبه فرضاً عينياً أو كفائياً ، والفرق بين علم الدنيا ، وعلم طريق الآخرة ، وبين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، وعرض لما تبدل من أسامى العلوم كالفقه والتوحيد وغيرهما .

وله في ذلك بحوث وتحقيقات لم يُسبق إليها ، جديرة بالغزالى الفقيه الأصولى المحقق ، وإن لم يخل بعضها من تعقب ، مثل حديثه عن الطب والعلوم والتعمق فيها ، إذ يراه توسعاً غير لازم ولا مطلوب ، فرأيه يحمل طابع عصره ، وكذلك رأيه فى دراسة الأدب والشعر ، وإنكاره على مَن تخصص أو تبحَّر فى ذلك ، وقد ناقشته فى الأمرين فى كتابى « الرسول والعلم » (١) .

بَيْد أن أهم ما تعرَّض له فى كتابه حول العلم والمعرفة ، وأشده خطراً على العقل الإسلامى ، والسلوك الإسلامى ، هو : ما ذكره بعد ذلك - فى كتاب « شرح عجائب القلب » من الربع الثالث - عن الكشف أو الإلهام ، أو المعرفة التى يسعى إليها أهل التصوف ، وطريق الوصول إليها .

فقد أفرد لذلك عدة فصول أو مباحث نذكر هنا أهمها ،لنناقشه فيه ، فقد علَّمنا هو فى كتبه ألا نعرف الحق بالرجال ، بل نعرف الحق بأدلته فنعرف أهله .

كتب رحمه الله فى أحد مباحثه مبحثاً عنوانه : « بيان الفرق بين الإلهام والتعلم ، والفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق وطريق النظار » قال فيه :

« اعلم أن العلوم التى ليست ضرورية - وإنما تحصل فى القلب فى بعض الأحوال - تختلف الحال فى حصولها ، فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاماً ، والذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً .

---

(١) انظر : الرسول والعلم : طبع مؤسسة الرسالة ببيروت ، ودار الصحوة بالقاهرة .

ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدرى العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل ؟ وإلى ما يطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم . وهو مشاهدة المَلَك الملقى فى القلب . والأول : يسمى إلهاماً ونفثاً فى الروع ، والثانى : يسمى وحياً ، وتختص به الأنبياء . والأول يختص به الأولياء والأصفياء [١] ، والذى قبله - وهو المكتسب بطريق الاستدلال - يختص به العلماء .

وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق فى الأشياء كلها ، وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة - التى سبق ذكرها - فهى كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذى هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة ، وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح فى مرآة القلب يضاهى انطباع صورة من مرآة فى مرآة تقابلها .

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنَّفه المصنِّفون ، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكُنْه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ،

---

(١) ولكن من المقرر المعلوم : أن الإلهام والنفث فى الروع من طرق الوحى ، وفى الحديث : « إن روح القدس نفث فى روعى .. » فهذا مشترك بين الأنبياء والأولياء .

لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكُنْه الهمة على الله تعالى ، فمن كان لله كان الله له . وزعموا [1] أن الطريق فى ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه فى زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ؛ ولا بالتأمل فى تفسير ! ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلاً بلسانه : الله ، الله ، على الدوام ، مع حضور القلب ، حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ، ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر ، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً فى قلبه حاضراً فيه ، كأنه لازم له ، لا يفارقه ، وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحدّ ، واختيار فى استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس ، وليس له اختيار فى استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله ، فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق ؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق فى قلبه ، ويكون فى ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ، ثم يعود وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفاً ، وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه

---

(١) هكذا عبر الإمام الغزالى عن اعتقاد القوم !

لا تُحصر كما لا يُحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم . وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط .

وأما النظار وذوو الاعتبار ، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضاءه إلى هذا المقصد على الندور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق ، واستبطؤا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر ، وإن حصل فى حال فثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب ، وقال رسول الله ﷺ : « قلب المؤمن أشد تقلباً من القِدْر فى غليانها » [١] ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»[٢] ، وفى أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ، ويختلط العقل ، ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم ، نشبت بالقلب خيالات فاسدة ، تطمئن النفس إليها مدة طويلة ، إلى أن يزول وينقضى العمر قبل النجاح فيها ، فكم من صوفى سلك هذا الطريق ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال فى الحال ، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض ، وزعموا أن ذلك يضاهى ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبى ﷺ لم يتعلم ذلك ، وصار فقيهاً بالوحى والإلهام ، من غير تكرير وتعليق ، وأنا أيضاً ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه ، ومَن ظن ذلك فقد ظلم نفسه ، وضيَّع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً ؛ فكذلك هذا . وقالوا : لا بد أولاً من تحصيل ما حصَّله العلماء ، وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريجه : أخرجه أحمد والحاكم ، وصححه من حديث المقداد بن الأسود . (٢) قال العراقى : أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر .

بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة (١) .

* *

● شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف :

ثم ذكر الغزالى بعد ذلك مبحثاً طويلاً جعل عنوانه : « بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد » قال فيه :

« اعلم أن مَن انكشف له شيء - ولو الشيء اليسير - بطريق الإلهام والوقوع فى القلب من حيث لا يدرى ، فقد صار عارفاً بصحة الطريق ، ومَن لم يدرك ذلك من نفسه قط ، فينبغى أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات :

أما الشواهد : فقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) ، فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو طريق الكشف والإلهام .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَن عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم » (٣) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ (٤) من الإشكالات

---

(١) إحياء علوم الدين : ١٨/١-٢٠ ، ونلاحظ أن الغزالى ذكر اعتراض النظار وذوى الاعتبار ولم يرد عليه !

(٢) العنكبوت : ٦٩

(٣) قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث « الإحياء » : أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وضعَّفه .

(٤) الطلاق : ٢

والشُّبَه ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (١) يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾(٢)، قيل : نوراً يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر في دعائه من سؤال النور ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اللَّهم أعطني نوراً ، وزدني نوراً ، واجعل لي في قلبي نوراً ، وفي قبري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً » . . . حتى قال : «وفي شعري ، وفي بشري ، وفي لحمي ودمي وعظامي » (٣) .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (٤) ما هذا الشرح ؟ فقال : « هو التوسعة ، إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح » (٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « اللَّهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » (٦) .

وقال عليّ رضي الله عنه : « ما عندنا شيء أسرّه رسول الله ﷺ إلينا ، إلا أن يؤتي الله تعالى عبداً فهماً في كتابه » (٧) . . وليس هذا بالتعلم .

وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ﴾ (٨) : أنه الفهم في كتاب الله .

---

(١) الطلاق : ٣ — (٢) الأنفال : ٢٩

(٣) قال العراقي : متفق عليه من حديث ابن عباس . — (٤) الزمر : ٢٢

(٥) قال العراقي : أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود .

(٦) متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله : « وعلّمه التأويل » ، فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه . — (٧) رواه البخاري عن عليّ .

(٨) البقرة : ٢٦٩

وقال تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [1] خصَّ ما انكشف باسم الفهم .

وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق ، والله إنه للحق يقذفه الله فى قلوبهم ، ويُجريه على ألسنتهم .

وقال بعض السَلَف : ظن المؤمن كهانة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » [2] ، وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [4] .

وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « العلم علمان : فعلم باطن فى القلب ، فذلك هو العلم النافع » [5] .

وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن : ما هو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى فى قلوب أحبابه ، لم يُطلع عليه ملَكاً ولا بشراً .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن من أُمتى مُحدَّثين ومُعلَّمين ومُكلَّمين ، وإن عمر منهم » [6] .

والقرآن مصرِّح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم . وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [7] خصصها بهم .

---

(١) الأنبياء : ٧٩ (٢) أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد ، وقد تقدم .

(٣) الحجر : ٧٥ (٤) البقرة : ١١٨

(٥) أخرجه ابن عبد البر وغيره مرسلاً بإسناد صحيح .

(٦) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة بلفظ : « لقد كان فيما قبلكم من الأُمم مُحدَّثون ، فإن يك فى أُمَّتى أحد فإنه عمر » ، ورواه مسلم من حديث عائشة .

(٧) يونس : ٦

وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالِم الذى يحفظ من كتاب ، فإذا نسى ما حفظه صار جاهلاً ، إنما العالِم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا حفظ ولا درس ، وهذا هو العلم الربانى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدنَّا علماً ﴾ (٢) ، مع أن كل علم من لَدُنه ، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علماً لَدُنّيا ، بل اللدُنّى الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج .

فهذه شواهد النقل ، ولو جُمِع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر ، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومَن بعدهم . وقال أبو بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته : إنما هما أخواك وأُختاك ، وكانت زوجته حاملاً فولدت بنتاً ، فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت .

وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته : يا سارية الجبل الجبل ؛ إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه ، فحذَّره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه ، وكنت قد لقيت امرأة فى طريقى ، فنظرتُ إليها شزراً وتأملت محاسنها ، فقال عثمان رضى الله عنه لما دخلت : يدخل علىّ أحدكم وأثر الزنى ظاهر على عينيه ، أما علمتَ أن زنى العينين النظر ؟ لتتوبن أو لأعزرنك ، فقلت : أَوَحْىٌ بعد النبى ؟ فقال : لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة .

---

(١) آل عمران : ١٣٨ (٢) الكهف : ٦٥

وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلتُ المسجد الحرام فرأيتُ فقيراً عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى : هذا وأشباهه كَلٌّ على الناس ، فنادانى وقال : « والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » (١) ، فاستغفرتُ الله فى سرِّى فنادانى وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ (٢) ، ثم غاب عنى ولم أره .

وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى ، وهو عليل وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قمت قلت فى نفسى : من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال : فصاح بى : يا أبا العباس رد هذه الهمة الدنية ، فإن لله تعالى ألطافاً خفية .

وقال أحمد النقيب : دخلت على الشبلى فقال مفتونا : يا أحمد ، فقلت : ما الخبر ؟ قال : كنت جالساً فجرى بخاطرى أنك بخيل ، فقلت : ما أنا بخيل ، فعاد منى خاطرى وقال : بل أنت بخيل ، فقلت : ما فُتح اليوم علىَّ بشىء إلا دفعته إلى أول فقير يلقانى ، فقال : فما استتم الخاطر حتى دخل علىّ صاحب لمؤنس الخادم ومعه خمسون ديناراً ، فقال : اجعلها فى مصالحك ، قال : وقمت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الدنانير ، فقال : أعطها المزين ، فقلت : إن جملتها كذا وكذا ، قال : أوَ ليس قد قلنا لك : إنك بخيل ؟ قال : فناولتها المزين ، فقال المزين : قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجراً ، قال : فرميت بها فى دجلة وقلت : ما أعزَّكِ أحد إلا أذَّله الله عَزَّ وجَلَّ (٣) .

وقال حمزة بن عبد الله العلوى : دخلت على أبى الخير التينانى واعتقدت فى نفسى أن أسلِّم عليه ، ولا آكل فى داره طعاماً ، فلما خرجت من عنده

---

(١) نص الآية : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ (البقرة : ٢٣٥) .

(٢) الشورى : ٢٥ وتتمتها : ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَاتَفْعَلُونَ ﴾ .

(٣) وهل هذا التصرف جائز شرعاً ؟ وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال ؟ وهل خلت الدنيا من المستحقين غير هذا الفقير ومزينه ؟!

إذا به قد لحقنى ، وقد حمل طبقاً فيه طعام وقال : يا فتى كُلْ ، فقد خرجتَ الساعة من اعتقادك ، وكان أبو الخير النينانى هذا مشهوراً بالكرامات .

وقال إبراهيم الرقى : قصدته مُسلِّماً عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكد يقرأ الفاتحة مستوياً ، فقلت فى نفسى : ضاعت سفرتى ! فلما سلَّم خرجتُ إلى الطهارة ، فقصدنى سبع ، فعدتُ إلى أبى الخير ، وقلت : قصدنى سبع ! فخرج وصاح به وقال : ألم أقل لك لا تتعرض لضيفانى ؟ فتنحى الأسد ، فتطهرت ، فلما رجعت قال لى : اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد !

وما حُكِى من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر [(١)] ، بل ما حُكِى عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال عنه [(٢)] ، ومن سماع صوت الهاتف ، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر ، والحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك من نفسه ، ومَن أنكر الأصل أنكر التفصيل .

والدليل القاطع الذى لا يقدر أحد على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة ، فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

---

(١) ولكن هذا النوع يشترك فيه المسلمون وغير المسلمين ، فليس بلازم أن يكون من دلائل التقوى .

(٢) القول الصحيح الذى قامت عليه الأدلة الشرعية أن الخضر ليس حياً ، وأنه مات قبل بعثة رسول الله ﷺ ، كما دلل على ذلك ابن الجوزى وابن القيم وغيرهما (راجع كتابنا « فتاوى معاصرة » - الجزء الأول ص ١٩٣ - ١٩٥) نشر دار القلم بالكويت

ثانيهما : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور فى المستقبل كما اشتمل عليه القرآن ، وإذا جاز ذلك للنبى ﷺ جاز لغيره ، إذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأُمور وشُغِل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مُكاشَف بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا يسمى ولياً .

فمَن آمن بالأنبياء ، وصدَّق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى خارج وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب ، وهو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى ، فإذا أقرَّ بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن يكون المجاهدة سبيلاً إليه .

فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرنا ، من عجيب تردد القلب بين عالَم الشهادة وعالَم الملكوت .

وأما السبب فى انكشاف الأمر فى المنام بالمثال المحوج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة ، فلنقتصر على ما ذكرناه ، فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها .

* *

● وقفة مع الإمام الغزالى :

وإنى – مع حبى للإمام أبى حامد الغزالى – رضى الله عنه – وإعجابى بعبقريته وإخلاصه – أقف عند كلامه هذا لمناقشته كما ناقش شيوخه وخالفهم . وبذلك نضع النقط على الحروف ، والحق أحق أن يُتَّبع .

* إمكان الكشف ووقوعه متفق عليه :

أولاً : لا نزاع فى إمكان حصول الكشف ووقوعه بالفعل لبعض الناس ، وما ذكره الإمام الغزالى فى « الإحياء » من شواهد الشرع ومن الحكايات والتجارب ، مسلَّم به فى جملته ، وإن كانت النتائج التى رتبها عليها غير مُسلَّمة .

فقد استدل بجملة نصوص من القرآن والحديث والآثار مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ (٥)، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٦) وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٧) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللَّهم أعطنى نوراً ، وزدنى نوراً » (٨) . . . . الحديث ، وحديث : « لقد كان فيمن قبلكم مُحدَّثون ، فإن يكن فى أُمَّتى أحد فعمر » (٩) .

وقوله : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » (١٠) ، ودعائه لابن عباس « اللَّهم فَقِّهه فى الدين وعلمه التأويل » (١١) . . . . . . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

*

---

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) الأنفال : ٢٩ (٣) الزمر : ٢٢

(٤) البقرة : ٢٦٩ (٥) الأنبياء : ٧٩ (٦) الحجر : ٧٥

(٧) البقرة : ١١٨ (٨) متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٩) متفق على متنه كما تقدم . (١٠) رواه الترمذى وحسَّنه بعض العلماء ، وقد تقدم .

(١١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه .

* أدلة الغزالي لا تُثبت دعواه :

ثانياً : هذه الشواهد والنصوص والتجارب والحكايات التي ذكرها الغزالي رحمه الله مُسلَّمة في جملتها كما قلنا ، ولكنها لا تُثبت دعواه فيما وضعه عنواناً لهذا الفصل من كتابه ، وهو « بيان شواهد الشرح على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد » ، فإن هذه الشواهد والأدلة التي ذكرها دلَّت على أن الإنسان المؤمن التقي المجاهد لنفسه ، المراقب لربه ، الواقف عند أمره ونهيه ، يرزقه الله تعالى الهداية أو النور أو الفرقان أو الحكمة أو الفهم أو الفقه أو العلم النافع .... إلخ ... ولكنها لم تدل بحال على أن يكون كل همه انتظارها - وقد تجيء أو لا تجيء .. ويدعَ الطريق المعتاد الذي سلكه ورثة الأنبياء ، والذي شرعه الله تعالى لتحصيل المعرفة المأمونة لحقائق الغيب ، وأحكام الشرع .

وما ذكره الغزالي أن هذا طريق الأنبياء غير مُسلَّم له ، فنبينا صلى الله عليه وسلم حين كان يتعبد لله في غار حراء ، لم يكن يطلب كشفاً ولا إلهاماً ، وما كان يرجو شيئاً ينزل عليه من السماء ، ولم يخطر له ذلك بباله ، وهذا ما قرره القرآن : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُواْ أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (١) ، بل حين جاءه الوحي كان مفاجأة هائلة له ، ورجع يرجف فؤاده ، ويقول لزوجه : « زمِّلوني ، زمِّلوني » ! ويقول : « لقد خشيتُ على نفسي » !

إننا نخالف الإمام أبا حامد الغزالي هنا في اعتباره الكشف أمراً يُطلب ، والحقيقة أنه أمر يُوهَب ، ونحن المسلمين لم نؤمر بطلب الكشف ، وإنما أُمِرنا بطلب العلم ، وقد جاءت الأحاديث ناطقة بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ومَن سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة ،

---

(١) القصص : ٨٦

وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، ولم يجيء شيء من ذلك لطالب الكشف .

وإذا كانت النصوص قد جعلت النور والهداية والفرقان ثمرات للعبادة والتقوى والإخلاص لله تعالى ، بوصف ذلك مثوبة عاجلة من الله تعالى فى الدنيا لعباده المتقين ، فهذا فيمن عبدَ الله واتقاه مخلصاً له الدين ، مبتغياً وجهه ومرضاته قياماً بحق عبوديته ، أما مَن جعل الغاية من عبادته أن تُكشف له المساتير ويقوده الإلهام فى كل شيء ، فهو فى الحقيقة لم يخلص العبادة لربه ، إنما هو يطلب حظ نفسه !

ولقد صدق ما ذكره أحد المحققين عن بعض المتعبدين الذى حبس نفسه للصيام والقيام والتعبد أربعين يوماً ، رجاء أن تتفجر الحكمة من قلبه على لسانه ، كما جاء ذلك فى بعض الأحاديث فيمن أخلص لله أربعين يوماً ، فلما مرت الأربعون يوماً لم يَرَ أثراً للحكمة التى ركض وراءها ، وأطال العبادة من أجلها .

وعندئذ سأل أحد العلماء الربانيين عن مصداقية الحديث أو الأثر المذكور ؟ فقال له العالِم : الحديث فيمن أخلص لله وحده ، وأنت لم تخلص لله ، إنما أخلصت للحكمة !

وما ذكره الغزالى رحمه الله من هذا النوع ، فهم لا يُخلصون لله ، إنما يُخلصون للكشف !

ثالثاً : إن هذا الطريق الذى وصفه الغزالى وامتدحه ورفع من قدره ، وأثنى على أهله - طريق شديد الوعورة ، عظيم الخطورة ، كثير المنعطفات والمنحدرات ، جم الحفر والمهاوى ، قلَّما يجد فيه سالكه منارات تهديه وعلامات تدله ، لأن المنارات فى علم الشرع وقد تركوه ، والعلامات فى ميراث النبوة وقد أهملوه .

وقد ذكر الغزالى اعتراض النُظَّار وذوى الاستبصار على طُلاب الكشف الصوفى بنحو ذلك ، ولم يرد عليهم بشىء ، مما يومىء إلى أن اعتراضهم له وجهه ، وكلامهم فى محله . قال :

« وأما النُظَّار وذوو الاعتبار ، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضاءه إلى هذا المقصد على الندور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤوا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر ، وإن حصل فى حال فثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلب المؤمن أشد تقلباً من القِدْر فى غليانها » [1] ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » [2] .

وفى أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم ، نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضى العمر ، قبل النجاح فيها . فكم من صوفى سلك هذا الطريق ، ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه القياس ذلك الخيال فى الحال ، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض . وزعموا أن ذلك يضاهى ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبى ﷺ لم يتعلم ذلك وصار فقيهاً بالوحى والإلهام من غير تكرير وتعليق ، وأنا أيضاً ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه . ومَن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيَّع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من

---

(١) قال الحافظ العراقى : أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد ابن الأسود .

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .

الكنوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً : فكذلك هذا . وقالوا : لا بد أولاً من تحصيل ما حصَّله العلماء وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة » [1] .

رابعاً : إن هنا سؤالاً مهماً ، وهو : ما الحكم إذا جاء الكشف بما يخالف ما جاء به الشرع ؟ ماذا يصنع صاحب الكشف ؟ أيُصدِّق كشفه وإلهامه ، أم يُصدِّق ما جاء به قرآنه الذى لا يكذب ، ونبيه الذى لا ينطق عن الهوى ؟

إن بعض الصوفية يعتبرون ما ثبت بالكشف من باب علم اليقين ، بل عَيْن اليقين ، بخلاف ما ثبت بالشرع فهو من باب الترجيح والظن ، كما زعمه مَن زعمه : أن الدلالات اللفظية تعتريها احتمالات كثيرة تُخرجها من دائرة اليقين .

حتى الغزالى يقول : إن ما يتعلق بعلم المكاشفة لا يجوز أن يودع فى الكتب ، أو يُصرَّح به ، ويومىء إلى أن فيه ما قد يعارض محكمات الشرع وبيِّنات الدين ، حتى إنه فى آخر كتبه « منهاج العابدين » استشهد بأبيات نسبوها إلى الإمام علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ رضى الله عنهم يقول فيها :

يا رُبَّ جوهر علم لو أبوحُ به ... لقيل لى : أنت ممن يعبد الوثنا !

ولاستحل رجال مسلمون دمى ... يرون أقبح ما يأتونه حسناً !

---

(١) إحياء علوم الدين : ١/ ٢٠

فما الذى يجعل هؤلاء يستبيحون دمه لولا أن هناك مخالفة صريحة لما هو ثابت من الدين بيقين ؟!

خامساً : نريد أن نوجه إلى شيخنا أبى حامد الغزالى عدة أسئلة حول الطريقة التى ذكرها للوصول إلى الكشف :

(أ) هل هذه الطريقة التى وصفها الإمام الغزالى هى طريقة الصحابة والتابعين ؟ وهم خير هذه الأمة وسادتها وخير قرونها ؟ ومَنْ مِنَ الصحابة وتابعيهم بإحسان فعل ذلك ؟! أما واللهِ لو فعلوا ذلك ما فتحوا الفتوح ، ولا نشروا رسالة الإسلام فى العالمين ، ولا نقلوا لنا القرآن ، ولا رووا السنن ، ولا فقَّهوا الناس .

(ب) ثم كيف اعتبر الإمام الغزالى أن مما يفرق الفكر ، ويبعد القلب عن الاستغراق المنشود : تلاوة كتاب الله تعالى ، وقيام الليل وغيرها من صلوات النوافل ، وقراءة تفسير كلام الله ، أو أحاديث رسول الله ﷺ ، وهذه إنما هى مفاتيح الهدى ، ومصابيح الدجى ، وما عداها لا يؤمن فيها الخلط والدخل ، وكيد الشيطان .

(جـ) وإذا كان أبو حامد الغزالى – رحمه الله – يذكر أن التقوى هى مفتاح الهداية ، ومصدر النور والفرقان للقلب ، وسبب إخراجه من الشُبَه والمشكلات ، فهل التقوى إلا اتباع ما جاء به القرآن والسُّنَّة ؟ وهل هناك هدى خير من هدى محمد ﷺ ؟ وهل هناك منهج أو سُنَّة أفضل من سُنَّته وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ؟ وقد انعقد الإجماع على أن كل خير فى اتباع مَن سَلَف ، وأن كل شر فى ابتداع مَن خَلَف .

(د) وهل هذا السلوك يتفق هو ومنهج الإسلام ، الذى يتميز بالشمول والتوازن والاعتدال ، لأنه المنهج الوَسط للأمة الوسَط ؟

إن الإسلام دعوة عالمية ، جمعت بين الدنيا والآخرة ، بين الروح والمادة ،

بين العلم والإيمان ، بين العقل والقلب ، بين حق الله وحظ النفوس ، والدليل على هذا من الآيات والأحاديث وهَدْى السَلَف أكثر من أن يُحصر .

فأين هذا مما وصفه الإمام الغزالى هنا ؟

(هـ) ولِمَ كل هذا العناء ؟!

فى انتظار فيض قد يحدث مثله لمن مارس رياضة النفس وعاناها من أهل أى دين كان .

ولفقراء الهندوس الوثنيين ، ورهبان النصارى الضَّالين فى هذا الباب عجائب وقصص تُحكى وتُتناقل .

فهل هذه النتيجة هى غاية المنتهى التى ينشدها المتصوِّفون ؟

سادساً : ونزيد على هذا التساول أموراً إيجابية ذكرها الإمام ابن تيمية فى مناقشته لهذا الأمر ، منها :

(و) أن الإنسان إذا فرغ قلبه من كل خاطر ، فمن أين يعلم أن ما يحصل فيه حق ؟ هذا إما أن يعلم بعقل أو سمع ، وكلاهما لم يدل على ذلك .

(ز) أن الذى قد علم بالسمع أو العقل أنه إذا فرغ قلبه من كل شىء حلَّت فيه الشياطين ، ثم تنزَّلت عليه الشياطين ، كما كانت تتنزَّل على الكهان ، فإن الشيطان إنما يمنعه من الدخول إلى قلب ابن آدم ما فيه من ذكر الله الذى أرسل به رسله ، فإذا خلا من ذلك تولاه الشيطان . قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (١) .

وقال الشيطان فيما أخبر الله عنه : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

---

(١) الزخرف : ٣٦ - ٣٧ (٢) سورة ص : ٨٢ - ٨٣

سُلْطَانٌ إلا مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [1] ، والمخلصون هم الذين يعبدونه وحده لا يُشركون به شيئاً ، وإنما يُعبَد الله بما أمر به على ألسنة رسله ، فمَن لم يكن كذلك تولته الشياطين .

وهذا باب دخل فيه أمر عظيم على كثير من السالكين ، واشتبهت عليهم الأحوال الرحمانية بالأحوال الشيطانية ، وحصل لهم من جنس ما يحصل للكُهَّان والسَّحَرة ، وظنوا أن ذلك من كرامات أولياء الله المتقين ، كما قد بُسِط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

(ح) أن هذه الطريقة لو كانت حقاً ، فإنما تكون في حق مَن لم يأته رسول ، فأما مَن أتاه رسول وأمر بسلوك طريق ، فمَن خالفه ضلّ . وخاتم الرسل - صلى الله عليه وسلم - قد أمر أُمَّته بعبادات شرعية من صلاة وذكر ودعاء وقراءة ، لم يأمرهم قط بتفريغ القلب من كل خاطر وانتظار ما ينزل !

فهذه الطريقة لو قُدِّر أنها طريق لبعض الأنبياء لكانت منسوخة بشرع محمد - صلى الله عليه وسلم - فكيف وهي طريقة جاهلية لا توجب الوصول إلى المطلوب إلا بطريق الاتفاق ، بأن يقذف الله - تعالى - في قلب العبد إلهاماً ينفعه ؟ وهذا قد يحصل لكل أحد ، ليس هو من لوازم هذه الطريق .

ولكن التفريغ والتخلية التي جاء بها الرسول أن يفرغ قلبه مما لا يحبه الله ، ويملأه بما يحبه الله ، فيفرغه من عبادة غير الله ، ويملؤه بعبادة الله ، وكذلك يفرغه من محبة غير الله ، ويملؤه بمحبة الله ، وكذلك يخرج عنه خوف غير الله ، ويدخل فيه خوف الله تعالى ، وينفي عنه التوكل على غير الله ، ويثبت فيه التوكل على الله . وهذا هو الإسلام المتضمن للإيمان الذي يمده القرآن ويقويه ، ولا يناقضه وينافيه ، كما قال جندب وابن عمر : « تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا إيماناً » .

---

(١) الحجر : ٤٢

وأما الاقتصار على الذِكْر المجرَّد الشرعي مثل قول : « لا إله إلا الله » - فهذا قد ينتفع به الإنسان أحياناً ، ولكن ليس هذا الذِكْر وحده هو الطريق إلى الله - تعالى - دون ما عداه ، بل أفضل العبادات البدنية الصلاة ثم القراءة ثم الذِكْر ثم الدعاء (١) .

اللَّهم ألهمنا رشدنا ، وارزقنا نوراً نمشي به في الظلمات ، وفرقاناً نميز به بين المشتبهات ، وإيماناً يكون لنا مناراً في مفارق الطرقات ، وجنبنا الانخداع بضلال الشبهات ، وغواية الشهوات ، واهدنا صراطك المستقيم : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٢) . . آمين .

* * *

(١) من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ١٠/٣٩٩

(٢) الفاتحة : ٧

الرؤى ....

وهل تصلح دليلاً للأحكام الشرعية ؟

الرؤى .. وهل تصلح دليلاً للأحكام الشرعية ؟

• تمهيـــــد :

فى الصحائف السابقة عالجنا قضية « الإلهام » أو « الكشف » الذى أفرط فيه بعض الناس ، فجعلوه حُجَّة فى الأحكام الشرعية ، وأحلُّوا به الحلال ، وحرَّموا الحرام ، وأوجبوا الواجبات . وبذلك أضفوا على خواطرهم وأحاديث قلوبهم لوناً من العصمة . فهى لا تكذب ولا تخطىء .

وفرَّط فيه آخرون ، فأنكروا أن يكون للإيمان والتقوى والرياضة والمجاهدة أى أثر فى تنوير القلب وهدايته إلى الصواب فى مفارق الطرقات ، وإعطائه الفرقان فى المتشابهات .

وبيَّنا الرأى السليم ، والمنهج القويم ، الذى انتهى إليه الربَّانيون المحققون ، الذين هُدوا إلى الصراط المستقيم ملتزمين بمحكمات القرآن والسُّنَّة ، غير مائلين إلى غلو الغالين ولا تقصير المقصِّرين .

وبقى علينا هنا تحقيق القول فى قضية « الرؤى » وما يحيط بها ، فهى مكملة لموضوع الإلهام والكشف ، فالإلهام كشف فى حالة اليقظة ، والرؤيا كشف فى حالة المنام . وكلاهما من إدراكات الروح ، التى يستوى عندها النوم واليقظة ، والليل والنهار .

وقد استدل الإمام الغزالى وغيره على صحة الكشف فى اليقظة بصدق الرؤى التى يراها النائم فى المنام ، والتى صح الحديث بأنها جزء من أجزاء النبوة .

لهذا كان علينا أن نستكمل البحث فى موضوع « الرؤيا » ، ومدى إمكان الاعتماد عليها فى إثبات الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، وهل يُعتد بها دليلاً مستقلاً من أدلة الشرع فى الإثبات والنفى أو لا ؟ وفى أى مجال يمكننا اعتبارها والاعتداد بها ؟

هذا ما نحاول فى هذه الصحائف أن نبحث فيه ، ونلقى عليه بعض الضوء . فى إطار الأصول الشرعية ، والأدلة الثابتة من كتاب الله تعالى ، وسُنَّة رسوله ﷺ .

وقد عرض القرآن الكريم لقضية الرؤيا فى قصة الخليل إبراهيم مع ابنه الذبيح إسماعيل عليهما السلام . وفى قصة يوسف فى أكثر من موضع .

* *

● رؤيا الأنبياء وحى :

واتفق العلماء على أن رؤيا الأنبياء إحدى طرق الوحى ، وهى داخلة فى قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (١) ، فقوله : ﴿ إِلا وَحْياً ﴾ يشمل « الإلهام » ، وما يطلق عليه « النفث فى الروع » فى اليقظة ، كما يشمل « الرؤيا » فى النوم ، وعلى هذا اعتبرت رؤيا إبراهيم فى ذبح ولده وحياً وأمراً من الله تبارك وتعالى .

* *

● أنواع الرؤيا كما فصَّلتها السُّنَّة :

أما السُّنَّة النبوية فقد فصَّلت فى أمر الرؤيا ، وورد فيها عدد وافر من الأحاديث ، حتى إن الإمام البخارى عقد فى جامعه الصحيح كتاباً خاصاً سماه كتاب « التعبير » أورد فيه تسعة وتسعين حديثاً ، وافقه مسلم على تخريجها كلها ، إلا بضعة أحاديث ، كما أورد فيه عشرة آثار عن الصحابة والتابعين ، كما ذكر ذلك الحافظ فى الفتح فى آخر كتاب التعبير (٢) .

---

(١) الشورى : ٥١

(٢) فتح البارى : ١٢/٤٤٦ ، طبعة دار الفكر المصوَّرة عن السَّلَفية .

ومن هذه الأحاديث :

حديث أبي قتادة : « الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه ، فليبصق عن يساره ، وليستعذ بالله ، فلن يضره » .

وحديث أنس بن مالك : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

وحديث أبي سعيد الخدري : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها ، فإنما هي من الله ، فليحمد الله عليها وليُحدِّث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هي من الشيطان ، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره» .

وحديث أبي هريرة : « لم يبق من النبوة إلا المبشِّرات » ، قالوا : وما المبشِّرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة » .

وحديث أنس : « مَن رآني في المنام فقد رآني ، فإن الشيطان لا يتمثل بي » .

وحديث أبي سعيد : « مَن رآني فقد رأى الحق ، فإن الشيطان لا يتكونني » .. والجزء الأول من رواية أبي قتادة أيضاً .

* *

● حقيقة الرؤيا وصلتها بعالَم الغيب :

والناس في قضية الرؤيا جَدُّ متفاوتين :

فمن الناس مَن غلظ حجابهم - كالماديين في عصرنا وفي كل عصر ، وكأتباع مدرسة التحليل النفسي - فهم ينكرون الرؤيا الصادقة ، ولا يرون الرؤى كلها إلا انعكاساً لما في النفس حالة اليقظة ، أو لما يختبىء في سراديب العقل الباطن « اللاشعور » .

وفي مقابل هؤلاء مَن يعتمدون في حياتهم على الرؤى كأنها وحي ، وينتظرون في كل أمر أن يروا فيه رؤيا تشير لهم إلى الطريق . بل منهم مَن يجعلها حُجَّة يستدلّ بها كما يستدلّ بالسُّنَّة والكتاب ، أو الإجماع والقياس .

وفى بعض الجمعيات الإسلامية انشق فريق من أعضائها على قيادتهم ، وناصبوها العداء بناء على رؤى رآها بعضهم ، وكأنما اعتبروها وحياً .

وذكر الأستاذ فهمى هويدى فى إحدى مقالاته الأسبوعية فى « الأهرام » القاهرية وغيرها : أن أحد حكام المسلمين ، بعد أن قرر إجراء الانتخابات فى بلده فى موعد مُعيَّن ، عاد فألغاها نتيجة لرؤيا رآها ، حذَّرته من عواقبها !

وهكذا أصبحت الرؤى تتدخل فى الدين ، وتتدخل فى السياسة ، وتتدخل فى شتَّى شئون الحياة .

ونحن لا ننفى صدق بعض الرؤى ، فهذا أمر أثبته النص ، وأثبته الواقع ، وأيَّده العلم .

أما النصوص ، فحسبنا ما ذكره القرآن فى سورة يوسف ، من رؤياه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له . ومن رؤيا الملك سبع بقرات سمان ... ومن رؤيا السجينين معه ... إلخ . وكلها كانت رؤى صادقة ، ووقعت كما رؤيت .

وكذلك رؤيا الرسول ﷺ أنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين .

وفى الحديث الصحيح عند البخارى : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » (١) .

وقد قيل فى سبب هذا التخصيص بالعدد المذكور :

١ - أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى هو الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، وذلك نصف سنة ، ثم انتقل إلى وحى اليقظة ، مدة ثلاث وعشرين سنة ، من حين بعث إلى أن توفى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) رواه عن أربعة من الصحابة : عبادة بن الصامت ، وأنس ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد .

فنسبة مدة الوحى بالرؤيا إلى سائر المدة نسبة واحد إلى ستة وأربعين .

قال ابن القيم : « وهذا حسن ، لولا ما جاء فى الرواية الصحيحة الأخرى .. إنها جزء من سبعين جزءاً » .

٢ - وقد قيل فى الجمع بينهما : إن ذلك بحسب حال الرائى ، فإن رؤيا الصِّدِّيقين من ستة وأربعين ، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين . والله أعلم [١] .

٣ - وفى تفسير الآلوسى : لعلّ المقصود من كل ذلك - على ما قيل - مدح الرؤيا الصادقة والتنويه برفعة شأنها ، لا خصوصية العدد ، ولا حقيقة الجزئية [٢] .

وفى حديث آخر : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » . قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : « الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن ، أو تُرَى له » [٣] .

فالمراد بهذه الأحاديث وما شابهها تشبيه أمر الرؤيا الصادقة بالنبوة ، لأن فيها اطلاعاً على الغيب من وجه ما ، لا أن الرؤيا نبوة ، لأن جزء الشىء - إن أثبتنا حقيقة الجزئية هنا - لا يستلزم ثبوت وصفه للشىء كله . كمن قال : « لا إله إلا الله » رافعاً بها صوته ، لا يسمى مُؤذِّناً ، ولا يقال : إنه أذَّن ، وإن كان ما قال جزءاً من الأذان .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم : ١/ ٥٠ ، طبعة السنة المحمدية . وقال ابن بطال فى بيان كون الرؤيا جزءاً من النبوة : المعنى أن الرؤيا خبر صادق عن الله لا كذب فيه ، كما أن معنى النبوة : نبأ صادق من الله لا يجوز عليه الكذب ، فشابهت الرؤيا النبوة فى صدق الخبر ، وأما خصوص العدد ، فقال المازرى : هو ما أطلع الله عليه نبيه ، لأنه يعلم من حقائق النبوة ما لا يعلمه غيره . (انظر فتح البارى : ١٦/ ١٥ - ٢٢ ، طبعة الحلبى ، وقد أطال فيها التقول والبحث) .

(٢) تفسير روح المعانى : ١٢/ ١٨٢ (٣) رواه البخارى عن أبى هريرة .

ويؤيّد هذا حديث أم كُرز الكعبية قالت : سمعت النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ذهبت النبوة وبقيت المبشّرات » [1] .

وعلى كل حال ، فقد دلّت هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها - كما دلّ القرآن الكريم فى قصة يوسف وغيرها - على أن من الرؤى ما يتكشف فيه للرائى بعض الغيب المستور ، ولهذا عُدّت جزءاً من النبوة ، كما أن منها ما يتضمن نوع بشارة للمؤمن بما يَسرُّه ، ومثله النذارة والتحذير من معصية أو غفلة ، أو التنبيه على طريق خير ورُشد .

وهذا هو مجال الرؤيا الصادقة الذى يثبته المؤمنون بالإسلام ، لا أكثر من ذلك .

فليست حُجَّة شرعية ولا دليلاً يُتوصل بها إلى معرفة أحكام الدين .

أما غير الإسلاميين قديماً وحديثاً ، فلهم فى ظاهرة الرؤى تخرصات وتخبطات وأقاويل ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا قام عليها برهان ، ولا أيَّدها واقع .

وهذا الذى جاءت به النصوص الهادية ، أيَّده ويؤيّده الواقع المُشاهَد ، فلا تزال تجارب الناس فى كل مكان ، وفى كل زمان ، إلى يومنا هذا ، تثبت أن هناك رؤى تتنبأ بأحداث وأشياء ، ثم لا تلبث أن تتحقق .

وما منا إلا مَن شاهد من نفسه ، وممن حوله شيئاً من هذا الجانب ، ومَن لم يشاهد ذلك من نفسه ، سمعه من كثيرين غيره من الثقات ، ومن شتَّى الفئات ، ممن لا يُعقل تواطؤهم على الكذب .

أما العلم الحديث فقد اكتشف كثير من رجالاته أن فى الإنسان طاقات عجيبة لم تُعرف كلها بعد ، يمكن بها قراءة الأفكار ، واستشفاف بعض

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وابن حبان .

المجهول ، والتخاطب عن بُعد ، وللغربيين فى ذلك تجارب وملاحظات ، وكتب ومؤلّفات .

ولهذا يكون من التهور والتسرّع الذى لا يليق بإنسان يحترم نفسه ، ويحترم تجارب البَشر ، ويحترم مواهب النوع الإنسانى – المبادرة بإنكار الرؤيا الصادقة إنكاراً كلياً ، لا يقوم على أساس ولا برهان ، إلا جحد ما وراء الحس ، والانحصار فى قمقم المادة الكثيفة ، وعدم الثقة بما وهب اللهُ الإنسانَ من قدرة على اختراق حاجز الزمان والمكان ، واستشفاف بعض ما وراء عالَم الشهادة ، مما يخبئه عالَم الغيب .

ولقد حكوا عن صاحب نظرية التحليل النفسى « فرويد » أنه لم ينكر – على كل ما فى نظريته من تجاوز وتمحل وتحكم – أن هناك أحلاماً تحمل معنى التنبؤ .

وبعد هذا البيان فى تفسير ظاهرة الرؤى الصادقة ، يلزمنا أن ننبه هنا على أمرين فى غاية من الأهمية :

* الرؤى مجرد مبشرات أو منبهات :

الأول : أن الرؤى الصالحة مجرد مُبشّرات أو منبهات ، لتثبيت قلوب المؤمنين أو تقوية عزائمهم ، وليست « مخدّرات » يتعاطاها بعض السلبيين من الناس ، ليتخذوا منها تكأة للاتكالية الواهنة ، وللهرب من الواقع ، أو للقعود عن مجاهدة الفساد ، ومواجهة الظلم والظلام . فهو إذا رأى فى منامه أن طاغية سيسقط ، أو أن نظاماً سينهار ، أو أن طائفة ستنتصر ، هلّل وكبّر ، وضحك واستبشر ، ووقف عند هذا الحد ، لا يقوم بجهد إيجابى فى تحويل الغيب المترقب إلى واقع ملموس ، مكتفياً بإلقاء العبء على كاهل القَدَر الذى يقول للشىء : « كن » فيكون !

والنبى – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه لم يكونوا ينظرون إلى الرؤيا

أكثر من أنها بُشرَى ، ثم يمضون فى خطتهم وجهادهم ، سائرين على الدرب ، غير وانين ولا متثاقلين ، ولا مهملين لسنن الله .

وهذا واضح من سيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد أن رأى أنه وأصحابه دخلوا المسجد الحرام آمنين .

هذا مع الفرق البيِّن الشاسع بين رؤيا ليس فى صدقها شك - كرؤيا الرسول ﷺ - ورؤى ربما كانت من أحاديث النفس وأمانيها فى اليقظة ، تتشكل فى صورة رؤى بالليل ، على نحو ما قال المثل : « الجوعان يحلم بأنه فى سوق العيش » .

*

* الرؤيا ليست حُجَّة شرعية :

الثانى : أنّ الرؤيا لا تُعتبر دليلاً شرعياً ، ولا يُحتج بها على جواز فعل أو ترك ، ولا على منع أو استحباب ، وذلك لأسباب :

١ - أن الشرع قد حدَّد أدلة الأحكام فى الكتاب والسُّنَّة ، وما دلا عليه من الإجماع والقياس الصحيح ، ولم يجعل من أدلة أحكامه رؤيا زيد أو عمرو من البَشر غير المعصومين . قال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ﴾ (٣) .

٢ - أن منابع الرؤيا متعددة متنوعة ، فهى كالكشف ، منها ما هو رحمانى ،

---

(١) الأعراف : ٣ (٢) المائدة : ٩٢ (٣) الحشر : ٧

ومنها ما هو نفساني ، ومنها ما هو شيطاني . فمن أين يأتي اليقين بأن رؤيا فلان هذه رحمانية ، لا نفسانية ولا شيطانية ؟

قال صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يُحدِّث الرجل نفسه في اليقظة ، فيراه في المنام » ، وفي لفظ : « إن الرؤيا قد تكون حقاً وهي المعدودة من النبوة ، وقد تكون من الشيطان ، وقد تكون من حديث النفس » .

وعند ابن ماجه – بسند حسن كما في الفتح – مرفوعاً : « الرؤيا ثلاث : منها أهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم (١) ، ومنها ما يهمّ به الرجل في يقظته فيراه في منامه ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » ، فالرؤيا الصادقة التي هي من دلائل الهداية هي التي من الله خاصة ، وكيف يمكن التمييز بين الأنواع الثلاثة ، إلا بعرضها على ميزان آخر ، وهو الشرع ؟ فرؤيا الأنبياء وحي ، وهي حق ، لأن الوحي لا يدخله خلل ، لأنه محروس من الشيطان ، هذا باتفاق الأُمَّة ، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بالرؤيا .

وأما رؤيا غيرهم فلا عصمة لها ، ولهذا وجب أن تُعرض على الوحي الصريح ، فإن وافقته وإلا لم يُعمل بها .

٣ – أن النائم ليس من أهل التحمل ، وهو غير مأمون على ضبط ما رآه ، ولذا رُفِع عنه حكم التكليف .

٤ – أن الغالب في الرؤيا أن تكون على خلاف ظاهرها ، فهي عادة رموز

---

(١) مثاله : ما ثبت عند مسلم من حديث جابر قال : جاء أعرابي فقال : يا رسول الله ؛ رأيت في المنام كأن رأسي قُطِع فأنا أتبعه . وفي لفظ : « فقد خرج فاشتددتُ في أثره » ! ، فقال : « لا تُخبر بتلاعب الشيطان بك في المنام » ، وفي رواية له : « إذا تلاعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يُخبر به الناس » .

وإشارات لا يفطن إلى حقيقتها إلا الأقلُّون من الناس . ولهذا اختُصَّ يوسف بأن الله علَّمه تأويل الأحاديث ، أي الرؤى . وكذلك قال هو عن نفسه مناجياً ربّه : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (١) ، ومَنْ مِنَ الناس كان يمكن أن يؤوِّل رؤيا ملك مصر للبقر والسنبلات بما أوَّله يوسف عليه السلام ؟ لقد عجز المعبِّرون في عصره وقالوا : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ (٢) . وحق لهم ما قالوا .

ولقد يرى الشخص الواحد منامين متشابهين في وقتين أو حالين مختلفين ، فيُفَسَّر كل منهما بعكس ما يُفسَّر به الآخر .

ولهذه الأمور اتفق أهل العلم على أن الرؤيا لا تصلح للحُجَّة ولا تُتخذ دليلاً شرعياً . وإنما هي تبشير وتحذير وتنبيه ، ولهذا سماها الرسول : « المبشِّرات » .

ولكنها قد تُعتبر وتصلح للاستئناس بها فقط إذا وافقت حُجَّة شرعية صحيحة ، كما ثبت عن ابن عباس : أنه كان يقول بمتعة الحج ، لثبوتها عنده بالدليل السمعي من الكتاب والسُّنَّة ، فلما رأى بعض أصحابه رؤيا توافق ذلك ، استبشر بها ابن عباس .

فمجرد الاستبشار بمثل هذا لا يضرّ ، لأن العمدة في الموضوع إنما هو الاستدلال الشرعي .

يقول العلامة ابن القيم : والرؤيا : مبدأ الوحي ، وصدقها بحسب صدق الرائي ، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً . وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطىء ، كما قال النبي ﷺ ، وذلك لبُعد العهد بالنبوة وآثارها ، فيتعوَّض المؤمنون بالرؤيا . وأما في زمن قوة نور النبوة : ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا .

---

(١) يوسف : ١٠١

(٢) يوسف : ٤٤

ونظير هذا الكرامات التى ظهرت بعد عصر الصحابة ، ولم تظهر عليهم لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم ، واحتياج مَن بعدهم إليها لضعف إيمانهم ، وقد نص أحمد على هذا المعنى .

وقال عبادة بن الصامت : « رؤيا المؤمن كلام يُكلِّم به الرب عبده فى المنام » ، وقد قال النبى ﷺ : « لم يبق من النبوة إلا المبشِّرات » . قيل : وما المبشِّرات ، يا رسول الله ؟ قال : « الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن أو تُرَى له » . وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب ، وقد قال النبى ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر فى العشر الأواخر ، قال : « أرى رؤياكم قد تواطأت فى العشر الأواخر ، فمَن كان منكم مُتَحَرِّيها فليتحرها فى العشر الأواخر من رمضان » .

والرؤيا كالكشف ، منها رحمانى ، ومنها نفسانى ، ومنها شيطانى ، وقال النبى ﷺ : « الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يُحدِّث به الرجل نفسَه فى اليقظة ، فيراه فى المنام » .

والذى هو من أسباب الهداية : هو الرؤيا التى من الله خاصة .

ورؤيا الأنبياء وحى ، فإنها معصومة من الشيطان ، وهذا باتفاق الأُمَّة ، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا .

وأما رؤيا غيرهم : فتُعرض على الوحى الصريح ، فإن وافقته وإلا لم يُعمل بها ، فإن قيل : فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة ، أو تواطأت ؟

قلنا : متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحى ، بل لا تكون إلا مطابقة له ، منبهة عليه ، أو منبهة على اندراج قضية خاصة فى حكمه ، لم يعرف الرائى اندراجها فيه ، فيتنبه بالرؤيا على ذلك ، ومَن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال ، والمحافظة على الأمر والنهى ، ولينم على طهارة كاملة مستقبل القِبْلة ، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه ، فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة .

وأصدق الرؤيا : رؤيا الأسحار ، فإنه وقت النزول الإلَهى ، واقتراب الرحمة والمغفرة ، وسكون الشياطين ، وعكسه رؤيا العتَمة ، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية . وقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « رؤيا المؤمن كلام يُكلِّم به الرب عبده فى المنام » .

وللرؤيا مَلَك موكل بها ، يُريها العبد فى أمثال تناسبه وتشاكله ، فيضربها لكل أحد بحسبه . وقال مالك : « الرؤيا من الوحى » ، وزَجَر عن تفسيرها بلا علم . وقال : « أتتلاعب بوحى الله » ؟!

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها ، يخرجنا ذكرها عن المقصود [1] . والله أعلم .

* *

● رؤيا النبى ﷺ يثبت بها حكم شرعى :

بل أزيد على ذلك فأقول :

إنَّ رؤيا النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام آمراً بشىء أو ناهياً عن آخر ، أو مظهراً حبه لأمر أو شخص أو طائفة ، أو مبدياً كراهته وسخطه على فرد أو جماعة أو موقف أو عمل - كل ذلك لا يؤخذ به ، ولا يثبت بمثله حكم شرعى من وجوب أو استحباب أو تحريم أو كراهة أو إباحة ، أو ولاء أو براءة أو عداوة .

وإنما يُعرض ما يكون من ذلك على الشريعة الثابتة المعصومة ، فإن وافقها فبها ونعمت ، وتكون الحُجَّة هى الشريعة ، أما الرؤيا فللتأنيس فقط .

وإن لم يوافق ذلك الشريعة رُفِض ولا شك ، لأن الذى كلَّفنا الله اعتقاده والعمل به هو ما أوحاه إلى رسوله فى حياته ، لا ما تجىء به رؤياه فى المنام

---

(١) مدارج السالكين : ١/ ٥٠ - ٥٢ - الطبعة الأولى - طبعة السُّنَّة المحمدية .

بعد وفاته . فإن الله لم يقبضه إليه إلا بعد أن أكمل الدين وأتمّ النعمة ، وترك الأمَّة على المحَجَّة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

ذكر ابن حزم في « المحلى » أنّ بعضهم احتج على منع الصائم من القُبْلة في النهار بخبر عن ابن عمر قال فيه : قال عمر : رأيت رسول الله ﷺ في المنام فرأيته لا ينظرني ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما شأني ؟ فقال : « ألست تُقَبِّل وأنت صائم » ؟ قلت - القائل عمر - : فوالذي بعثك بالحق ، لا أُقَبِّل بعدها وأنا صائم !

وعقّب أبو محمد ابن حزم على هذا الخبر بقوله : الشرائع لا تؤخذ بالمنامات ، لا سيما وقد أفتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمر في اليقظة حياً بإباحة القُبْلة للصائم . فمن الباطل أن ينسخ ذلك ميتاً ! نعوذ بالله من هذا [١] .

وذكر ابن حزم هنا الخبر الذي أخرجه أبو داود عن جابر قال ، قال عمر ابن الخطاب : هششتُ فقبَّلت وأنا صائم . فقلت : يا رسول الله ، صنعتُ اليوم أمراً عظيماً : قبَّلتُ وأنا صائم ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أرأيتَ لو مضمضتَ من الماء وأنت صائم » ؟ قلت : لا بأس به . قال : « فمه » ؟ [٢] .

فبيَّن له أن القُبْلة من الجِماع المحظور ، كالمضمضة من الشرب الممنوع ، كلتاهما لا تُفطر . ولهذا يُستدلّ بهذا الحديث على إثبات القياس ؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - أثبت للشيء حكم نظيره وهو القياس .

---

(١) المحلى : ٦/٥٠٧ ، طبعة الإمام .

(٢) رواه أبو داود في الصوم برقم (٢٣٨٥) ، وابن خزيمة في صحيحه (١٩٩٩) ، وابن حبان كما في « الموارد » برقم (٩٠٥) ، والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي (١ : ٤٣١) .

وأما قوله – صلى الله عليه وسلم : « مَن رآنى فى المنام فقد رآنى ، فإن الشيطان لا يتمثل بى » ، فهو حديث صحيح رواه البخارى عن أنس ، ومثله عن أبى سعيد الخدرى : « مَن رآنى فقد رأى الحق ، فإنَّ الشيطان لا يتكوننى » ، وعن أبى قتادة : « إنَّ الشيطان لا يتراءى بى » .

وعن أبى هريرة : « ولا يتمثل الشيطان بى » ، أو « لا يتمثل فى صورتى » وكلها عند البخارى ، فصحتها مما لا ريب فيه .

ومثلها عند مسلم وابن ماجه من حديث جابر : « إنه لا ينبغى للشيطان أن يتمثل بى » .

ومعنى هذا الحديث برواياته كافة : أنَّ الله أكرم نبيه وأكرم أُمَّته بأن منع الشيطان أن يظهر فى صورته – صلى الله عليه وسلم – فى الرؤيا ، لئلا يكذب على لسانه ، ويُضلِّل الأمَّة .

فمع أن الله أعطاه القدرة على التشكل فى أى صورة أراد ، لم يُمكِّنه من التصور فى صورته – صلى الله عليه وسلم – فمَن رأى النبى – صلى الله عليه وسلم – فى الرؤيا ، فقد رآه حقاً ، أو رأى الحق ، كما صحَّ عنه ، فليست رؤياه من أضغاث الأحلام ، ولا من وسوسة الشيطان .

ومعنى الحديث ، كما قال جماعة من العلماء : إذا رآه على الصفة التى كان عليها فى حياته ، لا على صفة مضادّة لحاله ، فإن رؤى على غيرها كانت رؤيا تأويل لا رؤيا حقيقة ، فإن من الرؤيا ما يخرج على وجهه ، ومنها ما يحتاج إلى تأويل .

وهذا ما اعتمده إمام المعبِّرين للرؤى محمد بن سيرين رحمه الله . فقد قال تعقيباً على الحديث المذكور : « هذا إذا رآه فى صورته » ، كما علقه عنه البخارى .

وذكر الحافظ فى الفتح عن أيوب قال : كان – يعنى محمد بن سيرين – إذا

قصّ عليه رجل أنه رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : صف لى الذى رأيته - فإن وصف له صفة لا يعرفها ، قال : لم تره . قال الحافظ : سنده صحيح . ووجدتُ له ما يؤيده ، فأخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب : حدَّثنى أبى ، قال : قلت لابن عباس : رأيتُ النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام ، قال : صفه لى ، قال : ذكرت الحسن بن علىّ ، فشبهته به ، قال : قد رأيته ، وسنده جيد [١] .

وهذا القول من ابن عباس من الصحابة ، ومن ابن سيرين من التابعين ، يدلّ على أنَّه ليس كل مَن رأى شخصاً فى المنام خُيِّل إليه أنه رسول الله ، يكون قد رأى رسول الله حقاً .

وعلى ذلك جرى علماء التعبير ، فقالوا : إذا قال الجاهل : رأيتُ النبى صلى الله عليه وسلم فإنه يُسأل عن صفته ، فإن وافق الصفة المرويّة - أى فى كتب الحديث والسيرة - وإلا فلا يُقبل منه [٢] .

ومن جهة أخرى ، فإن النائم ليس من أهل التحمل للرواية ، لعدم ضبطه وحفظه [٣] ، فلا يؤخذ ما قاله بعد يقظته حُجَّة مطلقة .

وبهذا كله نعلم أن لا حُجَّة للمنحرفين والمبتدعين فى اتخاذهم المنامات والرؤى دليلاً يستندون إليه ، مبررين بها بدعهم وانحرافاتهم التى ما أنزل الله بها من سلطان .

وللإمام أبى إسحاق الشاطبى كلام فى موضوع الرؤيا ردَّ به على هؤلاء المبتدعة ، وهو غاية فى الرصانة والتحقيق والجودة ، أنقله هنا لما فيه من قوة الحُجَّة ، ووضوح المحجَّة .

* *

---

(١) فتح البارى : ٣٨/١٦ (٢) المرجع السابق ص ٤٢

(٣) انظر إرشاد الفحول للشوكانى ص ٢٤٩ ، الطبعة الأولى - طبعة مصطفى البابى الحلبى - ١٩٣٧

● تحقيق الإمام الشاطبى فى موضوع الرؤيا :

قال الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » :

« وأضعف هؤلاء (يعنى المبتدعة) احتجاجاً : قوم استندوا فى أخذ الأعمال إلى المنامات (١) - وأقبلوا وأعرضوا بسببها ، فيقولون : رأينا فلاناً الرجل الصالح (أى فى المنام) ، فقال لنا : اتركوا كذا ، واعملوا كذا ، ويتفق مثل هذا كثيراً للمتمرسين (٢) برسم التصوف ، وربّما قال بعضهم : رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى النوم ، فقال لى كذا ، وأمرنى بكذا ، فيعمل بها ، ويترك بها ، مُعْرِضاً عن الحدود الموضوعة فى الشريعة . وهو خطأ ، لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يُحكم بها شرعاً على حال ، إلا أن تُعْرَض على ما فى أيدينا من الأحكام الشرعية ، فإن سوَّغهَا عملَ بمقتضاها ، وإلا وجب تركها والإعراض عنها ، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة . وأما استفادة الأحكام فلا ، كما يحكى عن الكتانى - رحمه الله - قال : رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام . فقلت : ادع الله ألا يميت قلبى . فقال : « قل كل يوم أربعين مرة : يا حىّ يا قيوم ، لا إلَه إلا أنت » ، فهذا كلام حسن لا إشكال فى صحته ، وكون الذِكْر يُحيى القلب صحيح شرعاً . وفائدة الرؤيا : التنبيه على الخير ، وهو من ناحية البشارة ، وإنما يبقى الكلام فى التحديد بالأربعين ، وإذا لم يوجد على اللزوم (يعنى إذا لم يلتزم به ويدم عليه) استقام .

فلو رأى فى النوم قائلاً يقول : إنَّ فلاناً سرق فاقطعه ، أو عالِم فاسأله ، أو اعمل بما يقول لك ، أو فلان زنى فحدّه ، وما أشبه ذلك ، لم يصح له

---

(١) فى الأصل : المقامات ، وهو غلط ناسخ أو طابع ، بدليل السياق .

(٢) تمرس بالشيء : احتك به ، وتمرس بدينه : تلعَّب به ، وعبث كما يعبث البعير . والمراد بهم هنا : المقلّدون للصوفية فى رسومهم الظاهرة دون أخلاقهم وأعمالهم .

العمل ، حتى يقوم له الشاهد فى اليقظة ، وإلا كان عاملاً بغير شريعة ، إذ ليس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحى .

ولا يقال : إن الرؤيا من أجزاء النبوة فلا ينبغى أن تُهمل ، وأيضاً إن المخبر فى المنام قد يكون النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو قد قال : « مَن رآنى فى النوم فقد رآنى حقاً ، فإنّ الشيطان لا يتمثل بى » ، وإذا كان ، فإخباره فى النوم كإخباره فى اليقظة ، لأنَّا نقول : إن كانت الرؤيا من أجزاء النبوة فليست إلينا من كمال الوحى ، بل جزء من أجزائه ، والجزء لا يقوم مقام الكلّ فى جميع الوجوه ، بل إنما يقوم مقامه فى بعض الوجوه ، وقد صرفت إلى جهة البشارة والنذارة ، وفيها كاف [1] .

وأيضاً فإنّ الرؤيا التى هى جزء من أجزاء النبوة من شرطها : أن تكون صالحة من الرجل الصالح ، وحصول الشروط مما يُنظر فيه ، فقد تتوفر ، وقد لا تتوفر .

وأيضاً فهى منقسمة إلى الحلم ، وهو من الشيطان ، وإلى حديث النفس ، وقد تكون سبب هيجان بعض أخلاط ، فمتى تتعين الصالحة حتى يُحكم بها ، وتُترك غير الصالحة ؟

ويلزم أيضاً على ذلك أن يكون تجديد وحى بحكم بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو منهى عنه بالإجماع .

يُحكى أن شريك بن عبد الله القاضى دخل على المهدى ، فلما رآه قال : علىّ بالسيف والنطع . قال : ولِمَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيتُ فى منامى كأنك تطأ بساطى ، وأنت معرض عنى ، فقصصت رؤياى على مَن عبّرها . فقال لى : يُظهر لك طاعة ، ويُضمر معصية . فقال له شريك : والله ما رؤياك برؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولا معبِّرك بيوسف الصِّدِّيق عليه السلام !

---

(١) كذا ، ولعل فى الكلام حذفاً .

فبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين ؟! فاستحيا المهدى وقال : اخرج عنى ، ثم صرفه وأبعده .

وحكى الغزالى عن بعض الأئمة : أنه أفتى بوجوب قتل رجل يقول بخلق القرآن . فروجع فيه ، فاستدلّ بأنّ رجلاً رأى فى منامه إبليس قد اجتاز بباب المدينة ولم يدخلها ، فقيل : هل دخلتها ؟ فقال : أغنانى عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن (وذكر اسمه) ، فقام ذلك الرجل فقال : لو أفتى إبليس بوجوب قتلى فى اليقظة هل تقلدونه فى فتواه ؟ فقالوا : لا . فقال : قوله فى المنام لا يزيد عن قوله فى اليقظة !

وأما الرؤيا التى يُخبر فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الرائى بالحكم ، فلا بدّ من النظر أيضاً ، لأنه إذا أخبر بحكم موافق لشريعته ، فالحكم بما استقر ، وإن أخبر بمخالف فمحال ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة فى حياته ، لأنّ الدين لا يتوقف استقراره بعد موته على حصول المرائى النوميّة ، لأن ذلك باطل بالإجماع . فمَن رأى شيئاً من ذلك فلا عمل عليه ، وعند ذلك نقول : إن رؤياه غير صحيحة ، إذ لو رآه حقاً لم يُخبره بما يخالف الشرع » .

* *

• تأويل حديث : « مَن رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً » :

قال الشاطبى : « لكن يبقى النظر فى معنى قوله - صلى الله عليه وسلم - : «مَن رآنى فى النوم فقد رآنى » . وفيه تأويلان :

أحدهما : ما ذكره ابن رشد إذ سئل عن حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة فى قضية ، فلما نام الحاكم ذكر أنه رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له : لا تحكم بهذه الشهادة فإنها باطلة ! فأجاب بأنه لا يحلّ له أن

يترك العمل بتلك الشهادة ، لأن ذلك إبطال لأحكام الشريعة بالرؤيا ،وذلك باطل لا يصح أن يُعتقد ، إذ لا يعلم الغيب من ناحيتها إلا الأنبياء الذين رؤياهم وحي ، ومَن سواهم إنما رؤياهم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

ثم قال : وليس معنى قوله : « مَن رآني فقد رآني حقاً » أن كل مَن رأى في منامه أنه رآه فقد رآه حقيقة ، بدليل أن الرائي قد يراه مرات على صور مختلفة ، ويراه الرائي على صفة ، وغيره على صفة أُخرى ، ولا يجوز أن تختلف صور النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا صفاته ، وإنما معنى الحديث أنَّ مَن رآني على صورتي التي خُلِقتُ عليها ، فقد رآني ، إذ لا يتمثل الشيطان بي ، إذ لم يقل : مَن رأى أنه رآني وإنما قال : « مَن رآني فقد رآني » ، وأنَّى لهذا الرائي الذي رأى أنه رآه على صورته أنه رآه عليها ؟ وإن ظنَّ أنه رآه ، ما لم يعلم أن تلك الصورة صورته بعينها ، وهذا ما لا طريق لأحد إلى معرفته .

فهذا ما نُقِل عن ابن رشد وحاصله يرجع إلى أن المرئي قد يكون غير النبي – صلى الله عليه وسلم – وإن اعتقد الرائي أنه هو .

والتأويل الثاني : يقول علماء التعبير : إنّ الشيطان قد يأتي النائم في صورة ما من معارف الرائي وغيرهم . فيشير إلى رجل آخر : هذا فلان النبي ، وهذا المَلَك الفلاني ، أو من أشبه هؤلاء ممن لا يتمثل الشيطان به ، فيوقع اللبس على الرائي بذلك ، وله علامة عندهم ، وإذا كان كذلك أمكن أن يكلمه المشار إليه بالأمر والنهي غير الموافقين للشرع ، فيظن الرائي أنه من قِبَل النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا يكون كذلك . فلا يوثق بما يقول له أو يأمر أو ينهى .

وما أحرى هذا الضرب أن يكون الأمر أو النهى فيه مخالفاً لكمال الأول ، حقيق بأن يكون فيه موافقاً ، وعند ذلك لا يبقى فى المسألة إشكال . نعم لا يحكم بمجرد الرؤيا حتى يعرضها على العلم ، لإمكان اختلاط أحد القسمين بالآخر ، وعلى الجملة فلا يستدلّ بالرؤيا فى الأحكام إلا ضعيف المنة .

نعم يأتى المرئى تأنيساً وبشارة ونذارة خاصة ، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكماً ، ولا يبنون عليها أصلاً ، وهو الاعتدال فى أخذها ، حسبما فهم من الشرع فيها ، والله أعلم » [1] .

وهذا كلام يعد غاية فى التحقيق من العلامة الشاطبى رحمه الله .

* * *

---

(١) الاعتصام : ١/٣٥١ - ٣٥٧ ، طبعة المنار .

الأصل الرابع من الأصول العشرين

فى حماية التوحيد ورعاية السنن والأسباب
وبيان موقف الإسلام من التمائم والرُّقى والكهانة

« والتمائم والرُّقى ، والودع والرمل ، والمعرفة والكهانة ، وادعاء معرفة الغيب ، وكل ما كان من هذا الباب : منكر تجب محاربته ، إلا ما كان آية من قرآن ، أو رقية مأثورة » .

حسن البنا

* * *

الأصل الرابع من الأصول العشرين

يقول الإمام حسن البنا رضى الله عنه : « والتمائم والرُّقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة ، وادعاء معرفة الغيب ، وكل ما كان من هذا الباب : منكر تجب محاربته ، إلا ما كان آية من قرآن ، أو رقية مأثورة » .

يقوم هذا الأصل على قاعدتين فى غاية الأهمية :

الأولى : هى تجريد التوحيد لله تبارك وتعالى ، بحيث يعتقد المسلم اعتقاداً جازماً : أن لا دافع ولا مانع غير الله ، ولا ضار ولا نافع غير الله ، وأن الأمور كلها بيديه سبحانه ، وأن مَن عداه ، وما عداه لا يملكون لأنفسهم - فضلاً عن غيرهم - ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ ، وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِىَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِىَ اللهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٢) .

فلا يجوز الاعتماد على أحد غير الله تعالى ، ولا على أسباب لم يشرعها الله تعالى .

والقاعدة الثانية : هى رعاية سنن الله تعالى فى الخلق والحياة والإنسان ، واحترام نظام الأسباب والمسببات الذى أقام الله عليه هذا الكون .

---

(١) الأنعام : ١٧ - ١٨ (٢) الزمر : ٣٨

وقد أشاع جو الشرك والوثنية قديماً وحديثاً أباطيل وخرافات اعتقادية وعملية ، أحدثت خللاً في مراعاة نظام السنن والأسباب .

من هذه الأباطيل :

١ – تعليق التمائم .

٢ – الرُّقى الشِركية .

٣ – ادعاء معرفة الغيب عن طريق المعرفة والكهانة والودع والرمل والتنجيم ونحوها .

وهذه كلها ، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته ، كما قال الأستاذ البنا رحمه الله ، ولم يستثن من ذلك إلا ما كان « آية من قرآن أو رقية مأثورة » .

وسنتحدث عن هذه الأمور الثلاثة وأحكامها بالتفصيل في المباحث التالية ، مستمدين العون والتوفيق من الله تعالى .

* * *

(١)

التمـــــائم وأحكامها

التمائم وأحكامها

معنى التمائم :

قال الحافظ المنذرى : التميمة : خرزة كانوا يُعلِّقونها ، يرون أنها تدفع عنهم الآفات . وهذا جهل وضلالة ، إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى .

وقال العلامة ابن الأثير فى النهاية : التمائم جمع تميمة ، وهى خرزات كانت العرب تُعلِّقها على أولادهم ، يتَّقون بها العين فى زعمهم فأبطلها الإسلام .

ومثلها الودَع ، وهو شىء يخرج من البحر ، يشبه الصدف ، يتَّقون به العين أيضاً .

ومثلها ما يُعلَّق من خيوط أو من أوراق تُكتب فيها بعض العبارات من غير ذكر الله تعالى ، أو توضع فيها بعض الأشياء مما يشتمل عليه ما يسمى بـ « الأحجبة » التى يصنعها الجهلة والدجَّالون لمن يقدسونهم .

ومن ذلك أيضاً : ما يُعلَّق على أبواب المنازل أو فى مقدمة السيارات ونحوها من وضع حدوة فرس ، أو ما كان على صورتها ، أو حذاء صغير ، أو كف مرسوم أو غير ذلك ، مما يزعمون أنه وقاية من العَيْن ، أو من أذى الجن أو الإنس ، ونحو ذلك ، فكله منكر أبطله الإسلام .

التمائم من الشرك :

وقد جاءت الأحاديث عن النبى ﷺ مُحذِّرة من تلك الأعمال ، ومعتبرة إياها من الشرك ، والمراد به الشرك الأصغر ، وهو عظيم .

روى الإمام أحمد فى مسنده عن عقبة بن عامر الجهنى : أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط ، فبايع تسعة وأمسك عن واحد ، فقالوا : يا رسول الله ؛

بايعتَ تسعة ، وتركتَ هذا ؟ قال : « إن عليه تميمة » ! ، فأدخل يده فقطعها ، فبايعه ، وقال : « مَن عَلَّق تميمة فقد أشرك » (١) .

وعن عقبة بن عامر أيضاً أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَن عَلَّق تميمة فلا أتمَّ الله له ، ومَن علَّق ودعة فلا ودع الله له » (٢) .

ومعني : « لا أتم الله له » : دعاء عليه ألا يتمم الله له ما يريد ، ومعنى : « لا ودع الله له » : أى لا جعله في دعة وسكون . وقيل : هو لفظ معنى من الودعة ، أى لا خفف الله عنه ما يخافه .

وعن عمران بن حصين : أن النبى ﷺ رأى فى يد رجل حلقة ، فقال : « ما هذا » ؟ قال : اتخذتها من الواهنة ، قال : « ما تزيدك إلا وهناً ، انبذها عنك ، فإنك إن متّ وهى عليك ، وُكِلْتَ إليها » (٣) .

وفى رواية الإمام أحمد : « فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحتَ أبداً » .

ورواه عبد الرزاق فى مصنفه عن عمران موقوفاً عليه : أنه نظر إلى رجل فى يده فتخ من صُفْر ، (الفتخ : الخواتيم الكبار ، والصُفْر : النحاس) فقال :

---

(١) رواه أحمد فى مسنده : ٤/ ١٢٦ ، والطبرانى : ١٧/ ٨٨٥ ، والحاكم : ٤/ ٢١٩ ، وقال المنذري فى الترغيب (٤/ ٣٠٧) ، والهيثمى فى المجمع (٥/ ١٠٣) : ورواة أحمد ثقات . وذكره الألبانى فى أحاديثه الصحيحة (٤٩٢) .

(٢) رواه أحمد : ٤/ ١٥٤ ، وأبو يعلى (١٧٥٩) ، والطبرانى : ١٧/ ١٢٠ ، وابن حبان فى صحيحه (الإحسان : ٦٠٨٦) ، والحاكم : ٤/ ٢١٦ ، وصحح إسناده ووافقه الذهبى ، والبيهقي : ٩/ ٣٥٠ ، وجوَّد إسناده المنذرى فى الترغيب والترهيب ، وقال الهيثمى بعد أن نسبه فى المجمع إلى أحمد وأبى يعلى والطبرانى (٥/ ١٠٢) : ورجالهم ثقات .

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه (٦٠٨٦) من طريق المبارك بن فضالة عن الحسن ، ورواه أحمد : ٤/ ٤٤٥ ، وابن ماجه في الطب (٣٥٣١) ، وقال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناد حسن ، مبارك مختلف فيه .

« ما هذا في يدك » ؟ قال : صنعته من الواهنة ! فقال عمران : « فإنه لا يزيدك إلا وهناً » ! [1] .

والواهنة - كما يقول ابن الأثير في النهاية - عِرْق يأخذ في المنكب أو في اليد كلها ، فيرقى منها .

وقيل : هو مرض يأخذ في العضد ، وربما عُلّق عليها جنس من الخرز ، يقال لها : خرز الواهنة : وهي تأخذ الرجال دون النساء ، وإنما نهاه عنها ، لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم ، فكان عنده في معنى التمائم المنهي عنها .

وإنما قال له : « لا تزيد إلا وهناً » لأن المشرك يُعامَل بنقيض قصده ، فإنه علق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [2] .

وفي الصحيحين عن أبي بشير الأنصاري : أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً : « أنْ لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر - أو قلادة - إلا قُطعت » [3] .

شك الراوي ، هل قال شيخه : « قلادة من وتر » ، أو قال : « قلادة » وأطلق ولم يقيد ؟

ويؤيد الأول ما روى عن مالك : أنه سئل عن القلادة ، فقال : ما سمعتُ بكراهتها إلا في الوتر .

ويؤيد الآخر : رواية أبي داود : « ولا قلادة » بغير شك .

واختلفوا في المراد بالنهي هنا .

---

(١) المصنف : الأثر (٢٠٣٤٤) . (٢) يونس : ١٠٦

(٣) متفق عليه ، انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، حديث (١٣٧١) .

ونقل الحافظ فى الفتح عن الإمام ابن الجوزى ثلاثة أقوال فى المعنى المراد :

أحدها : أنهم كانوا يُقلدون الإبل أوتار القسى ، لئلا تصيبها العين بزعمهم ، فأُمروا بقطعها ، إعلاماً بأن الأوتار لا ترد من أمر الله شيئاً . وهذا قول مالك . قال الحافظ : ويؤيده حديث عقبة بن عامر مرفوعاً : « مَن علّق تميمة فلا أتمَّ الله له » .

ثانيها : النهى عن ذلك ، لئلا تختنق الدابة عند شدة الركض ، ورجحه أبو عبيد ، إذ قال : نهى عن ذلك ، لأن الدواب تتأذى بذلك ، ويضيق عليها نفسها ورعيها ، وربما تعلقت بشجرة فاختنقت أو تعوقت عن السير .

وثالثها : أنهم كانوا يعلقون فيها الأجراس ، حكاه الخطابى ، وعليه يدل تبويب البخارى (١) .

وكان الصحابة رضى الله عنهم حذرين أشد الحذر من الشرك كله ، أكبره وأصغره ، جليه وخفيه ، أن يتسرب إلى أنفسهم أو إلى أحد من أهليهم أو من حولهم ، فإذا رأوا شيئاً من ذلك أنكروه ، أداءً للواجب ، وتبرئة للذمة ، وإبلاغاً للدعوة ، وكذلك تلاميذهم من التابعين .

روى الإمام أحمد فى مسند عبد الله بن مسعود عن ابن أخى زينب عن زينب امرأة عبد الله قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق ، كراهية أن يهجم منا على شيء يكرهه ، قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح ، قالت : وعندى عجوز ترْقينى من الحُمرة ، فأدخلتها تحت السرير ، فدخل فجلس إلى جنبى ، فرأى فى عنقى خيطاً ! قال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رُقِى لى فيه ! قالت : فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة شرك » ، قالت : فقلت له : لِمَ تقول هذا ، وقد كانت

---

(١) انظر فتح البارى : ٤٢/٦ ، طبعة السَّلَفية ، شرح حديث (٣٠٠٥) .

عيني تقذف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها ، وكان إذا رقاها سكنت ؟ قال : إنما ذلك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقيتها كفَّ عنها ، إنما كان يكفيكِ أن تقولى كما قال رسول الله ﷺ : « أذهب البأس رب الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقَماً » (١) .

أما الرقى فسيأتى الحديث عنها مفصلاً ، وأما التِّوَلَة - بكسر التاء وفتح الواو - فهى كما قاله ابن الأثير : ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره ، جعله شركاً لاعتقادهم أن ذلك يؤثر ويفعل خلاف ما قدَّره الله تعالى .

(السقم - بفتحتين ، وبضم السين مع سكون القاف : المرض) .

وروى ابن أبي حاتم عن عروة : أن حذيفة بن اليمان ، دخل على مريض ، فرأى في عضده سيراً ، فقطعه - أو انتزعه - ثم قال : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

وروى وكيع فى جامعه عن سعيد بن جبير : مَن قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة !

---

(١) قال الشيخ شاكر في تخريجه برقم (٣٦١٥) : إسناده حسن ، ابن أخي زينب امرأة ابن مسعود : لم يُعرف اسمه ، ولكنه تابعى ، فهو على الستر وقبول حديثه . زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود : صحابية معروفة . والحديث رواه أبو داود فى الطب (٣٨٨٣) من طريق أبى معاوية عن الأعمش ، واختصر القصة التى فى أوله . قال المنذرى : « أخرجه ابن ماجه عن ابن أخت زينب عنها ، وفى نسخة : عن أخت زينب عنها ، وفيه قصة ، والراوى عن زينب مجهول » ، وهو فى ابن ماجه (٣٥٣٠) مطولاً من طريق عبد الله بن بشر عن الأعمش ، وقال الحافظ فى التقريب عن ابن أخى زينب : كأنه صحابى ، ولم أره مسمى . والحديث رواه الحاكم من طريق عبد الله ابن عتبة بن مسعود عن زينب ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى : ٤١٧/٤ ، ٤١٨ ، وله عنده طريقان آخران يتقوى بهما : ٤٧/٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ورواه ابن حبان فى صحيحه (الإحسان : ٦٠٩٠) إلا أن فيه انقطاعاً . (٢) يوسف : ١٠٦

كراهة التمائم ولو كانت من القرآن :

وعن إبراهيم النخعى قال : كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن [1] .

وإبراهيم النخعى إمام من كبار فقهاء التابعين مات سنة ستة وتسعين (٩٦ هـ) .

وقوله : « كانوا » يقصد أصحاب ابن مسعود من مدرسة الكوفة العلمية الشهيرة ، أمثال علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وأبى وائل ، والحارث ابن سويد ، وعبيدة السلمانى ، والربيع بن خثيم ، وغيرهم . وكلهم من سادات التابعين ، وهذه الصيغة : « كانوا » يستعملها إبراهيم فى حكاية أقوالهم وأحوالهم .

وهذا هو موقف ابن مسعود وأصحابه : كراهية التمائم كلها ، من القرآن ومن غيره .

من يرى جواز التمائم إذا كانت من القرآن :

وهناك مَن يرى جواز التمائم إذا كانت من القرآن ، وما فيه ذكر الله تعالى .

فقد ورد أن عبد الله بن عمرو لم يكن يمانع فى ذلك .

فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (عبد الله بن عمرو) قال : كان رسول الله ﷺ يُعلِّمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع : « بسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامة ، من غضبه وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون » ، قال : فكان عبد الله يعلمهن من بَلغ من ولده ، أن يقولها عند نومه ، ومَن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها ، كتبها له ، فعلَّقها فى عنقه [2] .

قال فى « فتح المجيد » : وهو ظاهر ما روى عن عائشة ، وبه قال أبو جعفر

---

(١) انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ - بتحقيق محمد حامد الفقى - الطبعة السابعة - مطبعة السُّنَّة المحمدية - القاهرة .

(٢) رواه أحمد فى مسند عبد الله بن عمرو . الحديث (٦٦٩٦) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، ورواه أبو داود فى الطب (٣٨٩٣) ، والترمذى فى الدعوات (٣٥١٩) ، وقال : حسن غريب ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً .

الباقر ، وأحمد فى رواية . وحملوا الحديث (الناهى عن التمائم) على التمائم التى فيها شرك [1] .

وقال الحافظ ابن حجر فى حديث : « لا تبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر » بعد شرحه : هذا كله فى تعليق التمائم وغيرها مما ليس فيه قرآن ونحوه . فأما ما فيه ذكر الله فلا نهى فيه ، فإنه إنما يُجعل للتبرك به ، والتعوذ بأسمائه وذكره [2] .

موقف المسلم فى هذه القضية :

وإذا اختلف السَلَف فى مثل هذه القضية ، فللمسلم أن يأخذ ما يطمئن إليه قلبه من أحد الرأيين ، وإن كنت أرجح ما رآه أصحاب ابن مسعود من كراهية التمائم كلها .

وهذا الترجيح مرده إلى جملة أُمور :

أولها : عموم النهى عن التمائم ، حيث لم تُفرِّق النصوص بين بعضها وبعض ، ولم يوجد مخصص .

وثانيها : سد الذريعة ، حتى لا يُفضى إلى تعليق ما ليس كذلك .

وثالثها : أنه إذا علّق ذلك ، فإنه لا بد أن يمتهنه ، بحمله فى حال قضاء الحاجة ، والجنابة ونحوها [3] .

ورابعها : أن القرآن إنما أُنزِل ليكون هداية ومنهاجاً للحياة ، لا ليُتخذ تمائم وحُجُباً ، وما إلى ذلك .

ومع هذا لا ينبغى أن يشتد المسلم فى إنكار التمائم إذا كانت من القرآن وذكر الله ، أو يغيرها بيده ، فإنه من المقرر : أن لا إنكار فى المسائل الاجتهادية الخلافية ، ولا سيما أن ابن مسعود وأصحابه كانوا - كما روى

---

(١) فتح المجيد ص ١٢٧ (٢) فتح البارى : ١٤٢/٦

(٣) انظر : فتح المجيد ص ١٢٧ ، ١٢٨

إبراهيم - يكرهون التمائم كلها ، فهم يكرهونها فقط . وإن كان من حق المسلم المقتنع برأى أن يقيم الدليل على صحة ما ذهب إليه ، وبيان خطأ الرأى الآخر ، برفق وحكمة ، دون طعن أو تجريح للآخرين ، ودون عنف مصاحب للبيان .

وهذا ما جعل الإمام البنا يقول فى أصله هذا : « وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته ، إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة » .

والإمام محمد بن عبد الوهاب في كتابه الشهير « التوحيد » يقول تعليقاً على حديث « الرقى والتمائم والتِّوَلَة شرك » : التمائم شيء يُعلَّق على الأولاد من العين ، لكن إذا كان المعلَّق من القرآن فرخَّص فيه بعض السلَف ، وبعضهم لم يُرخِّص فيه ، ويجعله من المنهى عنه ، منهم : ابن مسعود رضى الله عنه [1] .

* * *

(١) فتح المجيد ص ١٢٦ - ١٢٧

(٢)
الرُّقَى وأحـــكامها

الرُّقى وأحكامها

الرُّقى : جمع رُقية ، وهى : العوذة التى يُرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع ولدغ الحيات والعقارب ونحوها ، كما يرقى بها من « العَيْن » . يقول عروة :

فما تركا من عوذة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقيانـــى !

وفى القرآن الكريم : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ (1) أى لا راقى يرقيه - إذا بلغت روحه الترقوة والحلقوم - فيحميه ، فالاستفهام إنكارى .

وكانت الرقى معروفة عند العرب فى الجاهلية ، ولكنها كانت كثيراً ما تشتمل على شركيات مثل الاستعاذة بالجن والشياطين ، وسؤال غير الله ، وما لا يُفهم معناه من الكلام .

ومن هنا حذَّر النبى ﷺ من هذا النوع من الرُّقى ، وهى التى اعتبرها شركاً ، كما فى حديث ابن مسعود المتقدم : « إنَّ الرُّقى والتمائم والتِّوَلَة شرك » .

كما أنه شرع الرقى إذا كانت بكلام الله تعالى ، أو بذكره سبحانه ، وذكر أسمائه الحسنى ، وصفاته العلا ، والتوسل إلى الله فى منع الضر ، ورفع الأذى ، وشفاء المرضى ، ونحو ذلك .

وقد رقى جبريل رسول الله ﷺ ، ورقى عليه الصلاة والسلام نفسه ، ورقى غيره ، وأذن للصحابة بالرُّقية ، ما لم يكن فيها شرك . كما سنبين ذلك .

---

(1) القيامة : ٢٦ - ٢٧

قال الإمام الخطابي : وكان عليه الصلاة والسلام قد رَقَى ورُقى ، وأمر بها وأجازها ، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله ، فهى مباحة ومأمور بها ، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منه بغير لسان العرب ، فإنه ربما كان كفراً ، أو قولاً يدخله الشرك (١) .

ومن ذلك : ما كان على مذاهب الجاهلية التى يتعاطونها ، وأنها تدفع عنهم الآفات بغير إذن الله تعالى وتقديره ، ويعتقدون أن ذلك من قِبَل الجن ومعونتهم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد سُئِل عمن يقول : يا أزران ، يا كيان ، فقال : هذه الألفاظ لا معنى لها فى كلام العرب ، وكل اسم مجهول ، فليس لأحد أن يرقى به ، فضلاً عن أن يدعو به ، ولو عرف معناه ، وأنه صحيح لكره أن يدعو الله بغير العربية (٢) .

وإنما يرخَّص لمن لا يُحسن العربية : فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام (٣) .

وفى موضع آخر قال : إن المشركين يقرأون من العزائم والطلاسم والرُّقى ما فيه عبادة للجن وتعظيم لهم . وعامة ما بأيدى الناس من العزائم والطلاسم والرُّقى التى لا تُفقه بالعربية ، فيها ما هو شرك بالجن ، ولهذا نهى علماء المسلمين عن الرقى التى لا يُفقه معناها ، لأنها مظنة الشرك ، وإن لم يعرف الراقى إنها شرك (٤) .

وفى قاعدة التوسل والوسيلة قال : وكذلك الرُّقى والعزائم الأعجمية هى تتضمن أسماء رجال من الجن يُدعون ويُستغاث بهم ، ويُقسم عليهم بمن

---

(١) فتح المجيد ص ١٢٦

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٢٨٤/٢٤ (٢) فتح المجيد ص ١٢٦

(٤) مجموع الفتاوى : ١٣/١٩ ، وانظر أيضاً ص ٦١ منه .

يعظمونه ، فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأُمور ، وهذا من جنس السحر والشرك [1] .

ومن هنا قال الحافظ ابن حجر : أجمع العلماء على جواز الرُّقى عند اجتماع ثلاثة شروط :

١ - أن تكون بكلام الله تعالى ، أو بأسمائه وصفاته .

٢ - وأن تكون باللسان العربي ، أو بما يُعرف معناه من غيره ، ويُرخَّص لغير العربي بالترجمة إلى لسانه .

٣ - وأن يعتقد أن الرُّقية لا تؤثر بذاتها ، بل بتقدير الله تعالى [2] .

* *

● الرُّقية كالدواء من قدر الله تعالى :

والرُّقية لا تنافي القَدَر ولا تدفعه ، بل هي من قَدَر الله تعالى ، فإنَّ الله عَزَّ وجَلَّ كما قدَّر المسببات قدَّر الأسباب ، وكما قدَّر النتائج قدَّر المقدمات ، فهو يُقدِّر أن هذا المريض يُشفى بتناوله للدواء الملائم ، وهذا يُشفى برقية رجل صالح ، وذلك بأسباب يتخذها ، فهذا كله من قَدَر الله تعالى .

والمؤمن الفقيه في دينه هو الذي يدفع الأقدار بعضها ببعض ، كما أمر الله تعالى وشرع ، فهو يدفع قَدَر الجوع بتناول الغذاء ، وقَدَر العطش بشرب الماء ، وقَدَر الداء بتعاطي الدواء .

وفي هذا جاء الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي خزامة قال : سألت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ؛ أرأيت رُقىً نسترقيها ،

---

(١) التوسل والوسيلة ص ١٥٦ ، طبع المكتب الإسلامي ببيروت .

(٢) انظر : فتح الباري : ١٠/ ١٩٥

ودواء نتداوى به ، وتُقاة نتقيها : هل ترد من قَدَر الله شيئاً ؟ قال : « هى من قدر الله » [1] وبهذا ندفع قدر الله بقدر الله .

* *

• الرُّقية والطب الجسمانى :

والرُّقية فى حقيقتها : دعاء والتجاء إلى الله تعالى رب الناس ، ومُذهب البأس ، أن يكشف الضرَّ ، ويشفى السقيم ، فهى لون من الطب المعنوى أو الطب الروحى أو الإلهى .

والإسلام لا يمنع من استخدام الأدوية المعنوية والإلهية بجوار الأدوية الطبيعية ، وقد يُكتفى فى بعض الأحيان بإحداهما دون الأخرى .

وقد نقل الحافظ فى « الفتح » عن ابن التين قوله : الرُّقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى هو الطب الروحانى ، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق ، حصل الشفاء بإذن الله تعالى ، فلما عَزَّ هذا النوع ، فزع الناس إلى الطب الجسمانى [2] .

وأنا أقول : إنَّ الطب الجسمانى مشروع ، حتى مع وجود ذلك النوع من الطب الروحى ، الذى يتجلى فى الرقى الشرعية والتعاويذ النبوية .

والنبى ﷺ شرع لأُمَّته هذا وذاك جميعاً ، فتداوى ، وشرع التداوى للأُمَّة ،

---

(١) رواه أحمد : ٣/ ٤٢١ ، والترمذى فى الطب (٢٠٦٦) ، وقال : حديث حسن ، وفى بعض النسخ : حسن صحيح ، وابن ماجه فى الطب حديث (٣٤٣٧) ، وله شاهد من حديث كعب بن مالك رواه ابن حبان فى صحيحه (الإحسان : ٦١٠٠) ، وآخر من حديث حكيم بن حزام رواه الحاكم وسكت عليه هو والذهبى (٤/ ٤٠٢) وفى موضع آخر : صححه ، ووافقه الذهبى (٤/ ١٩٩) كما رواه الطبرانى ، وقال الهيثمى (٥/ ٨٥): فيه صالح بن أبى الأخضر ضعيف يعتبر به ، وهو فى سند الحاكم أيضاً .

(٢) الفتح : ١٠/ ١٩٦

وصحَّت أحاديثه القولية والفعلية والتقريرية فى ذلك ، وعُرِف فى عدد من كتب الحديث « كتاب الطب » .

وقال فى ذلك عليه الصلاة والسلام فيما رواه عنه أبو هريرة : « ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء » (١) .

وعن ابن مسعود مرفوعاً « إن الله لم يُنزل داءً إلا وأنزل له شفاء ، فتداووا به » (٢)

وعن أسامة بن شريك : « تداووا يا عباد الله ، فإنَّ الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء إلا داء الهرم » (٣) .

وعن جابر بن عبد الله : « لكل داء دواء ، فإذا أُصيب دواء الداء برأ بإذن الله تعالى » (٤) .

« ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، علمه مَن علمه ، وجهله مَن جهله » (٥) .

ومع هذا شرع الرسول الكريم لأُمته الرُّقى والتعوذ بالله تعالى ، شرعها من الألم أو المرض الواقع ، وشرعها مما يُخاف ويُتوقع فى المستقبل .

---

(١) رواه البخارى فى أول كتاب الطب عن أبى هريرة (الفتح ١٠/ ١٣٤) حديث (٥٦٧٨) .

(٢) قال فى الفتح (١٠/ ١٣٥) : أخرجه عن ابن مسعود النسائى وصححه ابن حبان والحاكم .

(٣) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد والأربعة ، وصححه الترمذى وابن خزيمة والحاكم عن أسامة بن شريك (الفتح المذكور) .

(٤) رواه مسلم عن جابر ، المصدر السابق .

(٥) رواه النسائى وابن ماجه ، وصححه ابن حبان والحاكم - المصدر نفسه .

ففى حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان يُعَوِّذ الحسن والحسين بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة .

وروى الشيخان عن عائشة : « أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه ، ينفث بالمعوذتين ، ويمسح بهما وجهه » .

وعن خولة بنت حكيم مرفوعاً : « مَن نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله » (١) .

وعن سهيل بن أبى صالح ، عن أبيه ، قال : سمعتُ رجلاً من أسلَم ، قال : كنتُ جالساً عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أصحابه ، فقال : يا رسول الله ؛ لُدِغتُ الليلة فلم أنم حتى أصبحت ، قال : « ماذا » ؟ قال : عقرب ، قال : « أما إنك لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم تضرك إن شاء الله » (٢) .

وهذا يدلنا على أن الرقى والتعاويذ المشروعة تكون للوقاية ، كما تكون للعلاج .

* *

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٥٦٧) .

(٢) رواه مسلم فى الذكر ، حديث (٢٧٠٩) ، باب : التعوذ من سوء القضاء ... إلخ ، وأبو داود فى الطب - واللفظ له - (٣٨٩٨) ، وابن ماجه (٣٥١٨) ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً .

● نفع الأدوية الإلٰهية :

قال الإمام ابن القيم في « زاد المعاد » : واعلم أن الأدوية الطبيعية الإلٰهية تنفع من الداء بعد حصوله ، وتمنع من وقوعه ، وإن وقع لم يقع وقوعاً مضراً ، وإن كان مؤذياً ، والأدوية الطبيعية إنما تنفع ، بعد حصول الداء ، فالتعوذات والأذكار ، إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب ، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه ، فالرقى والتعوذ تُستعمل لحفظ الصحة ، ولإزالة المرض .

أما الأول : فكما في « الصحيحين » من حديث عائشة كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) والمعوذتين ، ثم يمسح بهما وجهه ، وما بلغت يده من جسده (٢) .

وكما في « الصحيحين » : « مَن قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » (٣) .

وكما في صحيح مسلم عن النبي ﷺ : « مَن نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » (٤) .

وكما في سنن أبو داود كان في السفر يقول بالليل : « يا أرض ، ربي

---

(١) الإخلاص : ١

(٢) رواه البخاري : ١٠٧/١١ في الدعوات ، باب : التعوذ والقراءة عند النوم ، ومسلم (٢١٩٢) في السلام ، باب : رقية المريض بالمعوذات .

(٣) رواه البخاري : ٩/ ٥٠ في فضائل القرآن ، باب : فضل سورة البقرة ، ومسلم (٨٠٨) في المسافرين ، باب : فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة .

(٤) رواه مسلم (٢٧٨٨) في الذكر والدعاء ، باب : التعوذ من سوء القضاء .

وربك الله ، أعوذُ بالله من شرِّك وشرِّ ما فيك ، وشرِّ ما يدبّ عليك ، أعوذُ بالله من أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ، ومن والد وما ولد » [1] .

وأما الثانى ، فكرُقية اللديغ بالفاتحة [2] .

* *

● أفضل الرُّقى :

ولا خلاف أن أفضل الرُّقى ما كان بالصيغة المأثورة عن النبى ﷺ ، وكذلك ما أُثِر عن جبريل أمين الوحى عليه السلام : أنه رقى به النبى ﷺ ، وقد صحَّت عدة صيغ عن رسول الله ﷺ بالإضافة إلى الصيغة الجبريلية ، وينبغى للمسلم أن يرقى بها ، بما اشتملت عليه من أفضل أنواع الدعاء لله والاستعاذة بالله ، والالتجاء إليه ، والبراءة مما سواه ، فضلاً عما لها من حلاوة ، وما عليها من طلاوة .

والمسلم يُؤجَر بالرُّقية بهذه الرُّقى النبوية من وجهين :

الأول : وجه الذكر والدعاء والاستعانة بالله تعالى .

والثانى : وجه الاتباع للمأثور النبوى ، والتقيد به : ففيه الهدى والفلاح .

وهذه الرُّقى منها ما هو من القرآن الكريم مثل المعوذات : سورة الإخلاص ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [3] ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [4] ، ومثل فاتحة الكتاب ، التى رقى بها أصحابُه وأقرَّهم عليها ، ومثل آية الكرسى .

ومنها : أذكار وأدعية ليست من القرآن الكريم ، وإن كانت مقتبسة من هُدَاه.

* *

---

(1) رواه أبو داود (٢٦٠٣) ، وأحمد : ٢/١٣٢ ، وفى سنده الزبير بن الوليد الشامى لم يوثقه غير ابن حبان ، وباقى رجاله ثقات .

(2) انظر زاد المعاد : ٤/١٨٢ - ١٨٤

(3) أى سورة الفلق . (4) أى سورة الناس .

● الصيغ النبوية للرُّقى :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسانٌ ، مسحه بيمينه . ثم قال : « أذهب البأس ، رب الناس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سَقَماً » (١) .

فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل ، أخذتُ بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع ، فانتزع يده من يدى ، ثم قال : « اللَّهم اغفر لى واجعلنى مع الرفيق الأعلى » .

قالت : فذهبت أنظر ، فإذا هو قد قضى (٢) .

وعنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أتى المريض يدعو له قال : « أذهب الباس ، رب الناس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سَقَماً » (٣) .

وفى رواية عنها أنه كان يرقى بهذه الرقية : « أذهب الباس ، رب الناس ، بيدك الشفاء ، لا كاشف له إلا أنت » (٤) .

وروى البخارى عن عبد العزيز بن صهيب قال : دخلت أنا وثابت (البنانى) على أنس بن مالك ، فقال ثابت : يا أبا حمزة ؛ اشتكيتُ ! فقال أنس : ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، قال : « اللَّهم

---

(١) « لا يغادر سَقَماً » أى لا يترك ، والسُّقْم بضم السين وإسكان القاف وبفتحهما ، لغتان .

(٢) رواه مسلم فى السلام ، حديث (٢١٩١) (٤٦) ، وأول الحديث فى البخارى فى الطب : ١٠/٢٠٦ حديث (٥٧٤٣) .

(٣) رواه البخارى فى الطب ومسلم فى السلام (٢١٩١) (٤٨) .

(٤) رواه البخارى فى الطب (٥٧٤٤) ومسلم فى السلام (٢١٩١) (٤٩) .

ربَّ الناس ، مُذهبَ الباس ، اشفِ أنت الشافى ، لا شافى إلا أنت ، شفاءً لا يُغادِر سَقَماً »(١) .

* *

● رُقية المريض بالمعوِّذات والنفث :

وعن عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله ، نفث عليه بالمعوذات . فلما مرض مرضه الذى مات فيه ، جعلتُ أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه ، لأنها كانت أعظم بركة من يدى (٢) ، ومعنى : « نفث عليه » أى نفخ نفخاً لطيفاً بلا ريق ، أو مع ريق خفيف .

وفى رواية عنها : أن النبى ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات ، وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه ، وأمسح عنه بيده ، رجاء بركتها (٣) .

وعن عبد الرحمن بن السائب ابن أخى ميمونة ، أن ميمونة قالت لى : يا ابن أخى ؛ ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ ؟ قلت : بلى ، قالت : « باسم الله أرقيك ، والله يشفيك ، من كل داء فيك ، أذهب الباس رب الناس ، اشف أنت الشافى ، لا شافى إلا أنت » (٤) .

وعن عثمان بن أبى العاص الثقفى ، أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً ، يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله ﷺ : « ضع يدك على الذى

---

(١) رواه البخارى فى الطب ، باب : رقية النبى ، البخارى مع الفتح : ١٠/٢٠٦ ، حديث (٥٧٤٢) .

(٢) رواه مسلم فى السلام ، باب : رقية المريض بالمعوذات ، حديث (٢١٩٢) (٥٠) ، والحديث عند البخارى فى الطب أيضاً .

(٣) رواه مسلم فى السلام ، باب : رقية المريض بالمعوذات ، حديث (٢١٩٢) (٥١) .

(٤) رواه النسائى في « عمل اليوم والليلة » (١٠٢١) ، وأحمد : ٦/٣٣٢ ، وابن حبان : (الإحسان : ٦٠٩٥) ، والطحاوى : ٤/ ٣٢٩ ، والطبراني : ٢٣/١٠٦١ من طريقين عن معاوية بن صالح به .

وذكره الهيثمى فى المجمع : ٥/ ١١٣ ، وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ، وقد وثق وفيه ضعف ، وعلى كل حال إسناده حسن .

تألم من جسدك ، وقل : باسم الله - ثلاثاً - وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقُدرته من شر ما أجد وأحاذر » [(١)] .

وفي رواية أبي داود : « أعوذ بعزة الله وقُدرته من شر ما أجد » [(٢)] .

وروى مسلم عن أبي سعيد : أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : يا محمد ؛ اشتكيت ؟ قال : نعم ، قال : « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين حاسد الله يشفيك ، باسم الله أرقيك » [(٣)] .

وروى أبو داود عن أبي الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَن اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه أخ له فليقل : ربنا الله الذي في السماء ، تقدَّس اسمك ، أمرك في السماء والأرض ، كما رحمتك في السماء ، فاجعل رحمتك في الأرض ، اغفر لنا حُوبنا [(٤)] وخطايانا ، أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، فيبرأ بإذن الله » [(٥)] .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ كان يُعلِّمهم من الفزع كلمات : « أعوذ بكلمات الله التامة ، من غضبه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » ، وكان عبد الله بن عمر يعلمهن مَن عقل من بنيه ، ومَن لم يعقل كتبه فأعلقه عليه [(٦)] .

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٢) ، باب : استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء .

(٢) رواه أبو داود في الطب (٣٨٩١) .

(٣) رواه مسلم في السلام - حديث (٢١٨٦) .

(٤) قال الخطابي : الحوب : الإثم ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ﴾ (النساء : ٢) ، والحوبة أيضاً - مفتوحة الحاء مع إدخال الهاء .

(٥) رواه أبو داود في الطب (٣٨٩٢) ، وأحمد : ٦/ ٢١ ، ونسبه المنذري للنسائي أيضاً وفي سنده مقال .

(٦) رواه أبو داود في الطب (٣٨٩٣) ، والترمذي في الدعوات ، حديث (٣٥١٩) ، باب : دعاء مَن أوى إلى فراشه ، وقال : حديث حسن غريب، ونسبه المنذري للنسائي أيضاً ، ورواه أحمد أيضاً ، وصححه الشيخ شاكر ، وقد تقدَّم .

وعن يزيد بن أبى عبيد ، قال : رأيت أثر ضربة فى ساق سَلَمة ، فقلت : ما هذه ؟ قال : أصابتني يوم خيبر ، فقال الناس : أصيب سلمة ، فأُتيَ بى رسول الله ﷺ فنفث فيَّ ثلاث نفثات ، فما اشتكيتها حتى الساعة [١] .

وعن عائشة ، قالت : كان النبى ﷺ يقول للإنسان إذا اشتكى ، يقول بريقه ، ثم قال به فى التراب : « تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، يُشفَى سقيمنا » [٢] .

* *

● الرُّقية بفاتحة الكتاب :

ومن أعظم الرُّقى : الرُّقية بفاتحة الكتاب وأُم القرآن .

عن خارجة بن الصلت التميمى ، عن عمه [٣] أنه أتى رسول الله ﷺ فأسلم ، ثم أقبل راجعاً من عنده ، فمرَّ على قوم عندهم رجل مجنون موثق بالحديد ، فقال أهله : إنَّا حُدِّثنا أن صاحبكم هذا قد جاء بخير ، فهل عندك شيء تداويه ؟ فرقيته بفاتحة الكتاب ، فبرأ ، وفى رواية : أنه رقاه بفاتحة الكتاب ثلاثة أيام غدوة وعشية .. فكأنما أنشط من عقال . قال : فأعطونى مائة شاة ، فأتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « هل إلا هذا » ؟ ، وقال مسدد فى موضع آخر : « هل قلت غير هذا » ؟ قلت : لا ، قال : خذها ، فلعمرى لمن أكل برُقية باطل لقد أكلتَ برُقية حق » [٤] .

---

(١) رواه البخارى فى المغازى : ٥/ ١٧٠ ، باب : غزوة خيبر ، وأبو داود فى الطب (٣٨٩٤) .

(٢) رواه البخارى فى الطب : ١٧١/٧ ، باب : رقية النبى ﷺ ، ومسلم فى السلام ، حديث (٢١٩٤) ، باب : استحباب الرقية ... إلخ ، وأبو داود فى الطب (٣٨٩٥) ، وابن ماجه فى الطب ، حديث (٣٥٢١) ، باب : ما عوَّذ به النبى ﷺ ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً .

(٣) عم خارجة بن الصلت : هو علاقة بن صحار السليطى .

(٤) رواه أحمد : ٥/ ٢١١ ، وأبو داود فى البيوع (٣٤٢٠) ، وفى الطب (٣٨٩٦) و(٣٨٩٧) ، عمل اليوم والليلة (١٠٣٢) ، والطبرانى : ٥٠٩/١٧ ، وصححه ابن حبان : (الإحسان : ٦١١٠ ، ٦١١١) ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبى : ١/ ٥٥٩ ، ٥٦٠ .

وعن أبى سعيد : أن رهطاً من أصحاب رسول الله ﷺ انطلقوا فى سفرة سافروها حتى نزلوا فى حى من أحياء العرب ، فاستضافوهم فأبوا أن يُضيفوهم ، فلُدِغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء ، لا ينفعه شىء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين قد نزلوا بكم ، لعله أن يكون عند بعضهم شىء ، فأتوهم فقالوا : يا أيها الرهط ، إنَّ سيدنا لُدِغ ، فسعينا له بكل شىء ، لا ينفعه شىء ، فهل عند أحد منكم شىء ؟ فقال بعضهم : نعم ، واللهِ إنى لراق ، ولكن واللهِ لقد استضفناكم فلم تُضيفونا ، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق فجعل يتفل ويقرأ : ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ - يعنى الفاتحة - حتى لكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشى ما به قَلَبَةَ . قال : فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه ، فقال بعضهم : اقسموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله ﷺ فنذكر له الذى كان ، فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له ، فقال : « وما يدريك أنها رقية ؟ أصبتم ، اقسموا واضربوا لى معكم بسهم »[1] ، ومعنى : « ما به قلبة » ، أى ما به ألم يقلب لأجله على الفراش .

* *

● من فقه الحديث :

قال الحافظ فى « الفتح » : « فى الحديث جواز الرُّقية بكتاب الله ، ويلتحق به ما كان بالذكر والدعاء المأثور ، وكذا غير المأثور مما لا يخالف ما فى المأثور ، وفيه مقابلة مَن امتنع من المكرمة بنظير صنيعه لما صنعه الصحابى من الامتناع من الرقية فى مقابلة امتناع أُولئك من ضيافتهم ، وفيه إمضاء ما يلتزمه المرء على نفسه ، لأن أبا سعيد التزم أن يرقى ، وأن يكون الجُعْل له ولأصحابه ،

---

(١) الحديث متفق عليه ، واللفظ للبخارى فى الطب - حديث (٥٧٤٩) .

وأمره النبى ﷺ بالوفاء بذلك ، وفيه جواز قبض الشئ الذى ظاهره الحل ، وترك التصرف فيه إذا عرضت فيه شبهة ، وفيه الاجتهاد عند فقد النص ، وعظمة القرآن فى صدور الصحابة ، خصوصاً الفاتحة ، وفيه أن الرزق المقسوم لا يستطيع مَن هو فى يده منعه ممن قسم له ، لأن أُولئك منعوا الضيافة ، وكان الله قسم للصحابة فى مالهم نصيباً ، فمنعوهم ، فسبَّبَ لهم لدغ العقرب حتى سيق لهم ما قسم لهم ، وفيه الحكمة البالغة ، حيث اختص بالعقاب مَن كان رأساً فى المنع ، لأن من عادة الناس الائتمار بأمر كبيرهم ، فلما كان رأسهم فى المنع ، اختص بالعقوبة دونهم جزاءً وفاقاً » (١) .

* *

● عظمة الفاتحة :

وقال الإمام ابن القيم فى « زاد المعاد » : « إذا ثبت أن لبعض الكلام خواص ومنافع ، فما الظن بكلام رب العالمين ، ثم بالفاتحة التى لم ينزل فى القرآن ولا غيره من الكتب مثلها ؟ لتضمنها جميع معانى كتب الله المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب تعالى ومجامعها ، وهى : الله ، والرب ، والرحمن ، وإثبات المعاد ، وذكر التوحيدين : توحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، وذكر الافتقار إلى الرب سبحانه فى طلب الإعانة وطلب الهداية ، وتخصيصه سبحانه بذلك ، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأفرضه ، وما العباد أحوج شيء إليه ، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم ، والمتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته ، بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، والاستقامة عليه إلى الممات ، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى مُنعَم عليه بمعرفة الحق ، والعمل به ، ومحبته ، وإيثاره ، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له ، وضال بعدم معرفته له ، وهؤلاء أقسام الخليقة مع تضمنها لإثبات القدر ، والشرع ، والأسماء ، والصفات ، والمعاد ، والنبوات ، وتزكية

---

(١) فتح البارى : ٤/٤٥٧

النفوس ، وإصلاح القلوب ، وذكر عدل الله وإحسانه ، والرد على جميع أهل البدع والباطل ، كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير « مدارج السالكين » في شرحها .

وحقيق بسورة هذا بعض شأنها ، أن يُستشفى بها من الأدواء ، ويُرقَى بها اللديغ .

وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله ، وتفويض الأمر كله إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وسؤاله مجامع النِعَم كلها ، وهى الهداية التى تجلب النعم ، وتدفع النِقَم ، من أعظم الأدوية الشافية الكافية .

وقد قيل : إن موضع الرُّقية منها : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) ، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء ، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل ، والالتجاء والاستعانة ، والافتقار والطلب ، والجمع بين أعلى الغايات ، وهى عبادة الرب وحده ، وأشرف الوسائل وهى الاستعانة به على عبادته ، ما ليس فى غيرها . ولقد مرّ بى وقت بمكة سقمتُ فيه ، وفقدت الطبيب والدواء ، فكنت أتعالج بها ، آخذ شربة من ماء زمزم ، وأقرؤها عليها مراراً ، ثم أشربه ، فوجدتُ بذلك البرء التام ، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع ، فأنتفع بها غاية الانتفاع » (٢) .

* *

● من أى شىء تكون الرُّقية ؟

أثبتت الأحاديث الصحاح : أن الرُّقية مشروعة من كل الآلام والأمراض التى تصيب المسلم .

روى مسلم فى صحيحه فى باب استحباب الرُّقية من العين والنملة والحُمة

---

(١) الفاتحة : ٥

(٢) زاد المعاد : ٤/ ١٧٧ ، ١٧٨

والنظرة ، عن عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبيه ، قال : سألت عائشة عن الرُّقية ؟ فقالت : رخَّص رسول الله ﷺ لأهل بيت من الأنصار فى الرُّقية ، من كل ذى حُمة [1] .

الحُمة فى السم : ومعناه : أذن فى الرُّقية من كل ذات سم .

وعن عائشة أيضاً : أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشىء منه ، أو كانت به قرحة أو جرح ، قال النبى ﷺ بإصبعه هكذا ، ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها : « باسم الله تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، ليشفى به سقيمنا ، بإذن ربنا » [2] .

وعنها رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يأمرها أن تسترقى من العين [3] .

وعن أنس قال : رخَّص رسول الله ﷺ ، فى الرُّقية من العين ، والحُمة ، والنملة [4] .

وعن أم سلمة زوج النبى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لجارية ، فى بيت أم سلمة ، زوج النبى ﷺ رأى بوجهها سفعة فقال : « بها نظرة فاسترقوا لها » يعنى بوجهها صفرة [5] .

« السفعة » قد فسرها فى الحديث بالصفرة ، وقيل : سواد . وقال

---

(١) رواه مسلم فى السلام (٢١٩٣) .

(٢) « أرضنا ، بريقة » قال جمهور العلماء : المراد بأرضنا هنا : جملة الأرض . وقيل : أرض المدينة خاصة لبركتها ، والريقة : أقل من الريق ، ومعنى الحديث أنه يأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة ، ثم يضعها على التراب فيعلق بها منه شىء ، فيمسح به على الموضع الجريح أو العليل ، ويقول هذا الكلام فى حال المسح .

(٣) متفق عليه وسيأتى .

(٤) رواه مسلم فى السلام (٢١٩٦) (٥٨) .

(٥) رواه مسلم فى السلام .

ابن قتيبة : هي لون يخالف لون الوجه ، و« النظرة » هي العين ، أي أصابتها عين ، وقيل : هي المس أي مس الشيطان .

وعن أبي الزبير : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : رخَّص النبى ﷺ لآل حزم في رقية الحية . وقال لأسماء بنت عميس : « مالى أرى أجسام بنى أخى ضارعة (أى نحيفة) تصيبهم الحاجة » ؟ قالت : لا ، ولكن العين تسرع إليهم ، قال : « ارقيهم » ، قالت : فعرضت عليه ، فقال : « ارقيهم » (١) .

قال أبو الزبير : وسمعت جابر بن عبد الله يقول : لدغت رجلاً منا عقرب ، ونحن جلوس مع رسول الله ﷺ ، فقال رجل : يا رسول الله ؛ أرقى ؟ - وفي رواية : أرقيه ؟ - قال : « مَن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » (٢) .

وعن جابر أيضاً قال : كان لى خال يرقى من العقرب ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرُّقى : قال : فأتاه ، فقال : يا رسول الله ؛ إنك نهيت عن الرُّقى ، وأنا أرقى من العقرب ، فقال : « مَن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » (٣) .

وعن جابر أيضاً ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن الرُّقى ، فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ؛ إنه كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب ، وإنك نهيت عن الرُّقى ، قال : فعرضوها عليه ، فقال : « ما أرى بأساً ، مَن استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه » (٤) .

* *

---

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٩٨) .

(٢) رواه مسلم في السلام (٢١٩٩) (٦١) .

(٣) رواه مسلم في السلام (٢١٩٩) (٦٢) .

(٤) رواه مسلم في السلام (٢١٩٩) (٦٣) .

● لا بأس بالرُّقى ما لم يكن فيه شرك :

وعن عوف بن مالك الأشجعى ، قال : كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ؛ كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : « اعرضوا علىَّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » [١] .

روى أبو داود عن الشفَاء [٢] بنت عبد الله قالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة ، فقال لى : « ألا تُعلِّمين هذه رُقية النملة كما علمتيها الكتابة » ؟ [٣] .

والنملة : قروح تخرج فى الجنبين ، ويقال : إنها تخرج أيضاً فى غير الجنب ، تُرقَى فتذهب بإذن الله عَزَّ وجَلَّ .

وعن عثمان بن حكيم : حدَّثتنى جدتى الرباب قالت : سمعت سهل ابن حُنيف يقول : مررنا بسيل فدخلت ، فاغتسلت فيه ، فخرجت محموماً ، فنمى ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « مُرُوا أبا ثابت يتعوَّذ » ، قالت : فقلت : يا سيدى [٤] ، والرقى صالحة ؟ فقال : « لا رُقية إلا فى نفس أو حُمة أو لدغة » [٥] .

قال أبو داود : الحُمة من الحيَّات وما يلسع .

---

(١) رواه مسلم فى السلام (٢٢٠٠) .

(٢) الشفاء : اسمها ليلى ، وغلب عليها الشفاء ، قرشية عدوية ، أسلمت قبل الهجرة ، وبايعت النبى ﷺ ، وكان النبى ﷺ يأتيها ويقيل فى بيتها ، وكان عمر رضى الله عنه يُقدِّمها فى الرأى ويرضاها ويفضلها ، وربما ولاها شيئاً من أمر السوق ، والياء فى « علمتيها الكتابة » ناشئة عن إشباع الكسرة .

(٣) رواه أبو داود فى الطب ، حديث (٣٨٨٧) .

(٤) قال الخطابى : النفس : العين ، وفيه بيان جواز أن يقول الرجل لرئيسه من الآدميين : يا سيدى .

(٥) رواه أبو داود فى الطب (٣٨٨٨) .

وأنفع ما يكون الرُّقية من العين ، وخصوصاً عين الحاسد إذا حسد .

* *

● كلام ابن القيم فى تأثير العين والرُّقية منها :

كتب ابن القيم فى كتاب « زاد المعاد فى هَدْى خير العباد » فصولاً فى هَدْيه – صلى الله عليه وسلم – فى العلاج بالأدوية الروحانية الإلهية المفردة ، والمركَّبة منها ، ومن الأدوية الطبيعية :

منها : فصل فى هَدْيه – صلى الله عليه وسلم – فى علاج المصاب بالعين ، وفيه ذكر جملة من الأحاديث منها :

ما رواه مسلم « فى صحيحه » عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق ولو كان شيء سابقَ القدر ، لسبقته العين » (١) .

وفى « صحيحه » أيضاً عن أنس ، أن النبى ﷺ رخَّص فى الرُّقية من الحُمة والعَيْن والنملة (٢) .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « العَيْن حق » (٣) .

---

(١) رواه مسلم (٢١٨٨) فى السلام ، باب : الطب والمرض والرُّقى ، ومعناه : أنَّ القَدَر لا يسبقه شيء ، ولو كان يُسبق لسبقته العَيْن لقوتها وسرعة تأثيرها .

(٢) رواه مسلم (٢١٩٦) فى السلام ، باب : استحباب الرُّقية من العَيْن والنملة والحُمة والنظرة ، والحُمة بالتخفيف : السُّم ، ويُطلق على إبرة العقرب للمجاورة ، لأن السُّم يخرج منها ، والنملة : قروح تخرج فى الجنب .

(٣) رواه البخارى : ١٠/١٧٣ ، فى الطب ، باب : العين حق ، ومسلم (٢١٨٧) فى السلام ، باب : الطب والمرض والرُّقى .

وفى « الصحيحين » عن عائشة قالت : أمرنى النبى ﷺ - أو أمر - أن نسترقى من العين [١] .

وذكر الترمذى : أن أسماء بنت عُميس ، قالت : يا رسول الله ؛ إن بنى جعفر تصيبهم العين أفأسترقى لهم ؟ فقال : « نعم ، فلو كان شىء يسبق القضاء لسبقته العين » ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح [٢] .

قال الإمام ابن القيم : والعين : عينان : عين إنسية ، وعين جِنِّية ، فقد صح عن أم سلمة ، أن النبى ﷺ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة ، فقال : « استرقوا لها ، فإن بها النظرة » [٣] .

قال الحسين بن مسعود الفرَّاء البغوى : وقوله : « سفعة » أى نظرة ، يعنى : من الجن . يقول : بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسِنَّة الرماح [٤] .

وعن أبى سعيد ، أن النبى ﷺ كان يتعوَّذ من الجان ، ومن عين الإنسان [٥] .

فأبطلت طائفة ممن قَلَّ نصيبهم من السمع والعقل أمر العَيْن ، وقالوا : إنما

---

(١) رواه البخارى : ١٠/١٦٩ - ١٧٠ فى الطب : باب : رُقية العَيْن ، ومسلم (٢١٩٥) فى السلام ، باب : استحباب الرُّقية من العَيْن والنملة والحُمة والنظرة .

(٢) رواه الترمذى (٢٠٥٩) ، وأحمد : ٦/٤٣٨ ، وابن ماجه (٣٥١٠) ، وسنده جيد .

(٣) أخرجه البخارى : ١٠/١٧١ - ١٧٢ فى الطب : باب : رُقية العَيْن ، ومسلم (٢١٩٧) فى السلام ، باب : رُقية العَيْن ، والسَّفْعة - بفتح السين ويجوز ضمها وسكون الفاء - سواد فى الوجه ، ومنه سَفْعة الفرس : سواد ناصيته ، وعن الأصمعى : حُمْرة يعلوها سواد ، وقيل : صُفْرة ، وقيل : سواد مع لون آخر ، وقال ابن قتيبة : لون يخالف لون الوجه ، وكلها متقاربة .

(٤) انظر شرح السُّنَّة : ١٣/١٦٣ ، بتحقيق شعيب الأرناؤوط .

(٥) أخرجه الترمذى (٢٠٥٩) ، والنسائى : ٨/٢٧١ ، وابن ماجه (٣٥١١) ، وحسَّنه الترمذى ، وتمامه : « فلما نزلت المعوذتان ، أخذ بهما وترك ما سوى ذلك » .

ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها ، وعقلاء الأُمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ، ولا تنكره ، وإن اختلفوا في سببه وجهة تأثير العَيْن .

فقالت طائفة : إن العائن إذا تكيَّفت نفسه بالكيفية الرديئة ، انبعث من عينه قوة سُمِّية تتصل بالمعين ، فيتضرر ، قالوا : ولا يُستنكر هذا ، كما لا يُستنكر انبعاث قوة سُمِّية من الأفعى تتصل بالإنسان ، فيهلك ، وهذا أمر قد اشتُهِر عن نوع من الأفاعي ، أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلكْ ، فكذلك العائن .

وقالت فرقة أُخرى : لا يُستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية ، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أُخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً ، وهذا مذهب مُنكرى الأسباب والقُوَى والتأثيرات في العالَم ، وهؤلاء قد سدُّوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين .

قال ابن القيم : « ولا ريب أنَّ الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قُوَى وطبائع مختلفة ، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام ، فإنه أمر مُشاهَد محسوس ، وأنت ترى الوجه كيف يحمرّ حُمرة شديدة إذا نظر إليه مَن يحتشمه ويستحى منه ، ويصفرّ صُفرة شديدة إذا نظر مَن يخاف إليه ، وقد شاهد الناس مَن يسقم من النظر وتضعف قواه ، وهذا كله بتأثير الأرواح ، ولشدة ارتباطها بالعين يُنسب الفعل إليها ، وليست هى الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية

للمحسود أذىً بيّناً ، ولهذا أمر الله - سبحانه - رسوله أن يستعيذ به من شره ، وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعَيْن ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة ، وتقابل المحسود ، فتؤثر فيه بتلك الخاصية ، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى ، فإن السُّمَّ كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوها ، انبعث منها قوة غضبية ، وتكيَّفت بكيفية خبيثة مؤذية ، فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين ، ومنها ما تؤثر في طمس البصر ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الأبتر ، وذي الطفيتين من الحيات : « إنهما يلتمسان البصر ، ويُسقطان الحبل » (١) .

ومنها ما تؤثر في الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة ، والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه مَن قَلَّ علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة ، بل التأثير يكون تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية ، وتارة بتوجه الروح نحو مَن يُؤثِّر فيه ، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل ، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى ، فيوصف له الشيء ، فتُؤثِّر نفسه فيه ، وإن لم يره ، وكثير من العائنين يُؤثِّر في المعين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال تعالى لنبيه : ﴿ **وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ** ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ **وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ (٣) ، فكل عائن حاسد ،

---

(١) أخرجه البخاري : ٦/٢٤٨ في بدء الخلق ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ (البقرة : ١٦٤) ، ومسلم (٢٢٣٣) في السلام ، باب : قتل الحيَّات وغيرها ، من حديث ابن عمر ، والطفيتان : هما الخطان الأبيضان على ظهر الحيَّة ، والأبتر : قصير الذنب ، وقوله : يلتمسان البصر ، قال الخطابي : فيه تأويلان ، أحدهما : معناه يخطفان البصر ويطمسانه بمجرد نظرهما إليه بخاصة جعلها الله تعالى في بصريهما إذا وقع على بصر الإنسان ، والثاني : أنهما يقصدان البصر باللسع والنهش ، والأول أصح وأشهر .

(٢) القلم : ٥١

(٣) الفلق : ٤ - ٥

وليس كل حاسد عائناً ، فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهى سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه ، أثَّرت فيه ، ولا بد ، وإن صادفته حذراً شاكى السلاح لا منفذ فيه للسهام ، لم تُؤثِّر فيه ، وربما رُدَّت السهام على صاحبها ، وهذا بمثابة الرمى الحسى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وذاك من الأجسام والأشباح ، وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سُمِّها بنظرة إلى المعين ، وقد تَعين الرجل نفسه ، وقد تعين بغير إرادته ، بل بطبعه ، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنسانى ، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن مَن عُرِف بذلك ، حبسه الإمام ، وأجرى له ما يُنفَق عليه إلى الموت ، وهذا هو الصواب قطعاً .

والمقصود . . العلاج النبوى لهذه العِلَّة ، وهو أنواع ، وقد روى أبو داود فى سننه عن سهل بن حنيف ، قال : مررنا بسيل ، فدخلت ، فاغتسلت فيه ، فخرجت محموماً ، فنمى ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « مُرُوا أبا ثابت يتعوَّذ » ، قال : فقلت : يا سيدى ؛ والرقى صالحة ؟ فقال : « لا رقية إلا فى نفس ، أو حُمة أو لدغة » [1] .

والنفس : العَيْن ، يقال : أصابت فلاناً نفساً ، أى : عين . والنافس : العائن . واللدغة - بدال مهملة وغين معجمة - وهى ضربة العقرب ونحوها .

فمن التعوذات والرُّقى : الإكثار من قراءة المعوذتين ، وفاتحة الكتاب ، وآية الكرسى .

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٨٨) فى الطب ، باب : ما جاء فى الرُّقى ، وفى سنده « رباب » جدة عثمان بن حكيم ، لم يوثقها غير ابن حبان ، وباقى رجاله ثقات .

ومنها التعوذات النبوية نحو : « أعوذ بكلمات الله التامات من شَرِّ ما خلق » [1] .

ونحو : « أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » .

ونحو : « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرّ ولا فاجر ، من شَرِّ ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ، ومن شَرِّ ما يعرج فيها ، ومن شَرِّ ما ذرأ فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن شَرِّ فتن الليل والنهار ، ومن شَرِّ طوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن » .

ومنها : « أعوذُ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شَرِّ عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » .

ومنها : « اللَّهم إنى أعوذُ بوجهك الكريم ، وكلماتك التامات من شَرِّ ما أنت آخذ بناصيته ، اللَّهم أنت تكشف المأثم والمغرم ، اللَّهم إنه لا يُهزم جندك ، ولا يُخلف وعدك ، سبحانك وبحمدك » .

ومنها : « أعوذُ بوجه الله العظيم الذى لا شىء أعظم منه ، وبكلماته التامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر ، وأسماء الله الحسنى ، ما علمتُ منها وما لم أعلم ، من شَرِّ ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شَرِّ كل ذى شَرٍّ لا أطيق شَرَّه ، ومن شَرِّ كل ذى شَرٍّ أنت آخذ بناصيته ، إن ربى على صراط مستقيم » .

ومنها : « اللَّهم أنت ربى لا إلَه إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قُوَّة إلا بالله ، أعلم أنَّ الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، اللَّهم إنى أعوذُ بك من شَرِّ نفسى ، وشَرِّ

---

(١) رواه مسلم فى السلام ، باب : الذكر والدعاء (٢٧٠٩) .

الشيطان وشركه ، ومن شرِّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إنَّ ربى على صراط مستقيم » .

وإن شاء قال : « تحصَّنتُ بالله الذى لا إله إلا هو ، إلهى وإله كل شيء ، واعتصمت بربى ورب كل شيء ، وتوكلت على الحى الذى لا يموت ، واستدفعت الشر بلا حول ولا قوة إلا بالله ، حسبى الله ونِعْمَ الوكيل ، حسبى الرب من العباد ، حسبى الخالق من المخلوق ، حسبى الرازق من المرزوق ، حسبى الذى هو حسبى ، حسبى الذى بيده ملكوت كل شيء ، وهو يُجير ولا يُجار عليه ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، وليس وراء الله مرمى ، حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » .

ومَن جرَّب هذه الدعوات والعوذ ، عرف مقدار منفعتها ، وشدة الحاجة إليها ، وهى تمنع وصول أثر العائن ، وتدفعه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها ، وقوة نفسه ، واستعداده ، وقوة توكله وثبات قلبه ، فإنها سلاح والسلاح بضاربه .

وإذا كان العائن يخشى ضرر عينه وإصابتها للمعين ، فليدفع شرها بقوله : اللَّهم بارك عليه ، كما قال النبى ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف : « ألا بركّتَ » [1] ، أى : قلتَ : اللَّهم بارك عليه .

ومما يُدفع به إصابة العين قول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، روى هشام ابن عروة ، عن أبيه ، أنه كان إذا رأى شيئاً يعجبه ، أو دخل حائطاً من حيطانه ، قال : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .

ومنها رُقية جبريل عليه السلام للنبى ﷺ التى رواها مسلم فى « صحيحه » :

---

(١) رواه مالك في الموطأ : ٢/٩٣٨ ، في أول كتاب العَيْن ورجاله ثقات .

« بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شرِّ كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك ، باسم الله أرقيك » (١) .

ورأى جماعة من السلَف أن تُكتب له الآيات من القرآن ، ثم يشربها ، قال مجاهد : لا بأس أن يكتب القرآن ، ويغسله ، ويسقيه المريض ، ومثله عن أبى قِلابة ، ويُذكر عن ابن عباس : أنه أمر أن يُكتب لامرأة تعسَّر عليها ولادها أثر من القرآن ، ثم يُغسل وتُسقى ، وقال أيوب : رأيت أبا قِلابة كتب كتاباً من القرآن ، ثم غسله بماء ، وسقاه رجلاً كان به وجع .

ذكر هذا كله ابن القيم فى « زاد المعاد » (٢) .

* *

● مَن يرقى ؟

وينبغى أن يكون الراقى مسلماً صالحاً ، حتى يكون مظنة لاستجابة الدعاء ، سواء أكان رجلاً أم امرأة ، وإن جاز أن يكون الراقى غير مسلم ، إذا التزم برقى المسلمين ، وهذا أمر غير مأمون .

روى ابن حبان عن عائشة : أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، وامرأة تعالجها أو ترقيها ، فقال : « عالجيها بكتاب الله » (٣) .

قال أبو حاتم ابن حبان : قوله صلى الله عليه وسلم : « عالجيها بكتاب الله » أراد : عالجيها بما يُبيحه كتاب الله ، لأن القوم كانوا يرقون فى الجاهلية

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٥) فى السلام ، باب : الطب والمرض والرُّقى .
(٢) الجزء الرابع ، ص ١٦٢ - ١٧١ ، طبع الرسالة ، بتحقيق الشيخ شعيب الارناؤوط .
(٣) الإحسان : ١٣/ ٤٦٤

بأشياء فيها شرك ، فزجرهم بهذه اللفظة عن الرُّقى إلا بما يبيحه كتاب الله دون ما يكون شركاً [1] .

وفى بعض الروايات أن هذه المرأة كانت يهودية ، فقد روى فى العَيْن ، باب : التعوذ والرقية من المرض ، والبيهقى عن يحيى بن سعيد ، عن عمرة بنت عبد الرحمن : أن أبا بكر الصِّدِّيق دخل على عائشة ، وهى تشتكى ، ويهودية ترقيها ، فقال أبو بكر : ارقيها بكتاب الله [2] .

قال الزرقانى فى « شرح الموطأ » : قال الربيع : سألت الشافعى عن الرُّقية ، فقال : لا بأس أن ترقى بكتاب الله وبما يُعرف من ذكر الله ، قلت : أيرقى أهل الكتاب المسلمين ؟ قال : نعم ، إذا رقوا من كتاب الله [3] .

* *

● الرُّقى المكتوبة :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ويجوز أن يُكتب للمصاب وغيره من المرضى شيئاً من كتاب الله وذكره بالمداد المباح ويُغسل ويُسقى ، كما نص على ذلك أحمد وغيره ، قال عبد الله بن أحمد : قرأت على أبى : حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إذا عسر على المرأة ولادتها فليكتب : بسم الله ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالَمين : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [4] ، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ

---

(١) انظر الإحسان (٦٠٩٨) ، قال محققه : رجاله ثقات رجال الشيخين ، إلا أن أبا أحمد الزبيرى - وهو محمد بن عبد الله بن الزبير - قال محمد : كان كثير الخطأ في حديث سفيان ، وقال أبو حاتم : عابد مجتهد حافظ للحديث له أوهام .

(٢) الموطأ : ٢/ ٩٤٣ ، والسنن الكبرى : ٩/ ٣٤٩

(٣) الزرقانى على الموطأ : ٤/ ٣٢٨

(٤) النازعات : ٤٦

يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُواْ إلا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ، بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) . قال أبي : حدثنا أسود بن عامر بإسناده بمعناه ، وقال : يُكتبَ فى إناء نظيف فيُسقى ، قال أبي : وزاد فيه وكيع : فتُسقى ويُنضح ما دون سُرَّتها ، قال عبد الله : رأيت أبي يكتب للمرأة فى جام أو شىء نظيف .

وقال أبو عمرو محمد بن أحمد بن حمدان الحيرى : أخبرنا الحسن ابن سفيان النسوى ، حدثنى عبد الله بن أحمد بن شبويه ، حدثنا علىّ ابن الحسن بن شقيق ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن سفيان ، عن ابن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إذا عسر على المرأة ولادها فليكتب : بسم الله ، لا إله إلا الله العلى العظيم ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتعالى رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُواْ إلا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ، بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . قال علىّ : يكتب فى كاغدة فيُعلّق على عضد المرأة ، قال علىّ : وقد جربناه فلم نر شيئاً أعجب منه ، فإذا وضعت تحله سريعاً ثم تجعله فى خرقة أو تحرقه (٢) .

هذا وأنا أفضل أن تكون الرقى مقروءة شفاهاً ، كما كان يفعل النبى ﷺ .

* *

● الرد على مَن كره الرُّقى بإطلاق :

روى الشيخان وغيرهما - واللفظ للبخارى - عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج علينا النبى ﷺ يوماً فقال : « عُرضت علىّ الأمم ، فجعل يمر النبى معه الرجل ، والنبى معه الرجلان ، والنبى معه الرهط ، والنبى ليس معه أحد ، ورأيت سواداً كثيراً سدَّ الأُفق ، فرجوتُ أن تكون أُمَّتى ، فقيل :

---

(١) الأحقاف : ٣٥ (٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ١٩/ ٦٤ - ٦٥

هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى : انظر ، فرأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأُفق ، فقيل لى : انظر هكذا وهكذا ، فرأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأُفق ، فقيل : هؤلاء أُمَّتك ، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » .

فتفرَّق الناس ولم يبين لهم ، فتذاكر أصحاب النبى ﷺ فقالوا : أما نحن فوُلدنا فى الشرك ، ولكنَّا آمنا بالله ورسوله ، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا ، فبلغ النبى ﷺ فقال : « هم الذين لا يتطيَّرون ، ولا يكتوون ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون » ، فقام عكاشة بن محصن فقال : أمنهم أنا يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، فقام آخر فقال : أمنهم أنا ؟ فقال : « سبقك بها عكاشة » [1] .

تمسك بهذا الحديث مَن كره الرُّقى والكى من بين سائر الأدوية وزعم أنهما قادحان فى التوكل دون غيرهما ، وأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة :

أحدها : قاله الطبرى والمازرى وطائفة : أنه محمول على مَن جانب اعتقاد الطبائعيين فى أن الأدوية تنفع بطبعها كما كان أهل الجاهلية يعتقدون .

وقال غيره : الرُّقى التى يُحمد تركها ما كان من كلام الجاهلية ، ومن الذى لا يُعقل معناه لاحتمال أن يكون كفراً ، بخلاف الرُّقى بالذكر ونحوه .

وتعقبه عياض وغيره بأن الحديث يدل على أن للسبعين ألفاً مزية على غيرهم وفضيلة انفردوا بها عمن شاركهم فى أصل الفضل والديانة ، ومَن كان يعتقد أن الأدوية تؤثر بطبعها أو يستعمل رقى الجاهلية ونحوها فليس مسلماً ، فلم يسلم هذا الجواب .

ثانيها : قال الداودى وطائفة : إن المراد بالحديث الذين يجتبنون فعل ذلك فى الصحة خشية وقوع الداء ، وأما مَن يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا ،

---

(١) رواه البخارى فى الطب ، باب : مَن لم يرق - حديث (٥٧٥٢) ، ومسلم فى السلام .

وقد قدَّمتُ هذا عن ابن قتيبة وغيره في باب : « مَن اكتوى » ، وهذا اختيار ابن عبد البر ، غير أنه معترض بما قدَّمته من ثبوت الاستعاذة قبل وقوع الداء .

ثالثها : قال الحليمي : يُحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين فى الحديث : مَن غفل عن أحوال الدنيا وما فيها من الأسباب المُعَدة لدفع العوارض ، فهم لا يعرفون الاكتواء ولا الاسترقاء ، وليس لهم ملجأ فيما يعتريهم إلا الدعاء والاعتصام بالله ، والرضا بقضائه ، فهم غافلون عن طب الأطباء ورقى الرُقاة ، ولا يحسنون من ذلك شيئاً ، والله أعلم .

رابعها : أن المراد بترك الرُّقى والكى : الاعتماد على الله فى دفع الداء والرضا بقدره ، لا القدح فى جواز ذلك ، لثبوت وقوعه فى الأحاديث الصحيحة وعن السَّلَف الصالح ، لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطى الأسباب ، وإلى هذا نحا الخطابى ومَن تبعه . قال ابن الأثير : هذا من صفة الأولياء المعرضين عن الدنيا وأسبابها وعلائقها ، وهؤلاء هم خواص الأولياء .

ولا يرد على هذا وقوع ذلك من النبى ﷺ فعلاً وأمراً ، لأنه كان فى أعلى مقامات العرفان ودرجات التوكل ، وكان ذلك منه للتشريع وبيان الجواز ، ومع ذلك فلا ينقص ذلك من توكله ، لأنه كان كامل التوكل يقيناً فلا يؤثر فيه تعاطى الأسباب شيئاً ، بخلاف غيره ، ولو كان كثير التوكل ، لكن مَن ترك الأسباب وفوَّض وأخلص فى ذلك كان أرفع مقاماً .

قال الطبرى : قيل : لا يستحق التوكل إلا مَن لم يخالط قلبه خوف من شىء ألبتة ، حتى السبع الضارى والعدو العادى ، ولا من لم يسع فى طلب رزق ولا فى مداواة ألم ، والحق أن مَن وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب اتباعاً لسُنَّته وسُنَّة رسوله ، فقد ظاهر صلى الله عليه وسلم فى الحرب بين درعين ، وليس على رأسه المِغْفَر ، وأقعد

الرماة على فم الشِعْب ، وخندَقَ حول المدينة ، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر هو ، وتعاطي أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك ، وقال الذى سأل : أعقل ناقتى أو أدعها ؟ قال : « اعقلها وتوكّل » ، فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل ، والله أعلم . » [١] .

* * *

---

(١) فتح البارى : ١٠/٢١١ - ٢١٢

(٣)
الكهـــانة وأحكامها

الكهـــانة

● **معنى الكهانة :**

الكهانة - كما يذكر الحافظ فى الفتح - ادعاء علم الغيب - كالإخبار بما سيقع فى الأرض . .

والأصل فيه : استراق الجنى السمع من كلام الملائكة ، فيلقيه فى أُذن الكاهن .

والكاهن : يُطلق على العرَّاف ، والذى يضرب بالحصى ، والمنجِّم ، ويُطلق على مَن يقوم بأمر آخر ويسعى فى قضاء حوائجه .

وقال فى « المحكم » : الكاهن : القاضى بالغيب .

وقال فى « الجامع » : العرب تسمى كل مَن أذن بشىء قبل وقوعه كاهناً .

وقال الخطابى : الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين ، لما بينهم من التناسب فى هذه الأُمور ، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه .

وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية ، خصوصاً فى العرب ، لانقطاع النبوة فيهم ، وهى على أصناف :

منها : ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى ، بحيث يسمع الكلام ، فيُلقيه إلى الذى يليه ، إلى أن يتلقاه مَن يلقيه فى أُذن الكاهن ، فيزيد فيه فلما جاء الإسلام ، ونزل القرآن ، حُرِست السماء من الشياطين ، وأُرسِلت عليهم الشُهُب ، فيقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ

﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [1] ، وكانت إصابة الكُهَّان قبل الإسلام كثيرة جداً ، كما جاء في أخبار « شق » و« سطيح » ونحوهما ، وأما في الإسلام فندر ذلك جداً ، حتى كاد يضمحل ، ولله الحمد .

ثانيها : ما يُخبر الجنى به مَن يواليه ، بما غاب عن غيره ، مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً ، أو يطلع عليه مَن قَرُب منه لا مَن بَعُد .

ثالثها : ما يستند إلى ظن وتخمين وحَدْس ، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة ، مع كثرة الكذب فيه .

رابعها : ما يستند إلى التجربة والعادة ، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهى السحر .

وقد يعتضد بعضهم في ذلك بالزجر والطَّرْق والنجوم ، وكل ذلك مذموم شرعاً [2] .

* *

● الرسول يعلن الحرب على الكهانة والكُهَّان :

وقد روى مسلم في صحيحه عن معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت : يا رسول الله ؛ أمور كنا نصنعها في الجاهلية : كنا نأتى الكُهَّان ! قال : « لا تأتوا الكُهَّان » [3] .

وروى الشيخان عن عائشة - واللفظ للبخارى - قالت : سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان ، فقال : « ليس بشىء » - أو « ليسوا بشىء » - فقالوا : يا رسول الله ؛ إنهم يحدثوننا أحياناً بشىء فيكون حقاً ! فقال

---

(1) الصافات : 10 (2) انظر فتح البارى : 10/216 ، 217

(3) صحيح مسلم ، حديث (537) .

رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الحق ، يخطفها الجنى ، فيقرها فى أذن وليه ، فيخلطون معها مائة كذبة » [1] .

ومعنى قوله : « ليسوا بشيء » : أى ليس قولهم بشيء يُعتمد عليه ، قال القرطبى : كانوا فى الجاهلية يترافعون إلى الكهان فى الوقائع والأحكام ، ويرجعون إلى أقوالهم ، وقد انقطعت الكهانة بالبعثة المحمدية ، لكن بقى فى الوجود مَن يتشبه بهم ، وثبت النهى عن إتيانهم ، فلا يحل إتيانهم ولا تصديقهم [2] .

* *

• النهى عن حُلوان الكاهن :

كما نهى النبى ﷺ عن « حُلوان الكاهن » ، وهو ما يُعطاه من أجر أو مكافأة ، وشبه بالشيء الحلو ، من حيث أخذه حلواً سهلاً بلا كلفة ولا مشقة . وقد روى الشيخان عن أبى مسعود الأنصارى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الكلب ، ومهر البغى ، وحُلوان الكاهن [3] .

فلا يجوز إعطاؤهم شيئاً مقابل تكهنهم ، كما لا يجوز لهم أخذه ، لأنه كسب مُحرَّم ، وأجر على عمل محظور وضار .

* *

• الكهانة كفر بما أُنزل على محمد :

وروى أحمد وأصحابُ السنن عن أبى هريرة مرفوعاً : « مَن أتى كاهناً ، فصدَّقه بما يقوله ، أو أتى امرأة حائضاً ، أو أتى امرأة فى دُبُرها ، فقد برىء بما أُنزِل على محمد » [4] .

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح : ٢١٦/١٠ ، حديث (٥٧٦٢) ، ومسلم ، حديث (٢٢٢٨) .

(٢) الفتح : ٢١٩/١٠ (٣) اللؤلؤ والمرجان - حديث (١٠١٠) .

(٤) رواه أحمد : ٤٠٨/٤ ، ٤٧٦ ، وأبو داود فى الطب (٣٩٠٤) ، والترمذى فى الطهارة (١٣٥) ، وابن ماجه فى الطهارة (٦٣٩) ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً . وذكره فى صحيح الجامع الصغير منسوبا إليهم (٥٩٤٢) .

وروى أحمد والحاكم عنه مرفوعا أيضا : « مَن أتى عرّافاً أو كاهناً ، فصدَّقه بما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد »[1] .

وروى أحمد ومسلم عن بعض أُمهات المؤمنين ، وسماها بعض الرواة : « حفصة » : أن رسول الله ﷺ قال : « مَن أتى عرَّافا فسأله عن شيء ، لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة »[2] .

وأي خسارة أكبر من عدم قبول الصلاة ، وهي عمود الإسلام ، والصلة اليومية بين العبد وربه ؟

وعن ابن مسعود موقوفاً : « مَن أتى عرّافاً أو ساحراً أو كاهناً ، فسأله ، فصدَّقه بما يقول ، فقد كفر بما أُنزِل على محمد ﷺ »[2] .

ومثل هذا لا يُقال بالرأي ، فهو في حكم المرفوع المروى من قبل عن أبي هريرة ، وهو وعيد مخيف لمن يذهب إلى هؤلاء الدجَّالين ، فإن كان يعتقد أنهم فعلاً يعلمون الغيب ، ويخترقون حُجُبه ، فقد دخل في الكفر الأكبر الصريح ، المخالف مخالفة قطعية للقرآن والسُّنَّة ، وإلا فقد وقع في كبيرة من الكبائر التي تجر إلى الكفر والعياذ بالله .

وإذا كان هذا شأن مَن أتاهم وسألهم وصدَّقهم ، فما بالك بأمر هؤلاء أنفسهم ؟ وما موقفهم من الإسلام ؟ وما موقف الإسلام منهم ؟!

روى البزار عن عمران بن حُصَيْن رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) رواه أحمد : ٤٢٩/٤ ، والحاكم في الإيمان ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي : ٧/١ ، ٨ .

(٢) رواه مسلم في كتاب السلام ، حديث (٢٢٣٠) ، ورواه أحمد : ٥/ ٣٨٠ .

(٣) قال المنذري : رواه البزار وأبو يعلى وجوَّد إسناده في الترغيب . انظر كتابنا (المنتقى : ١٨٥٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (١١٨/٥) : رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، خلا هبيرة بن بريم ، وهو ثقة .

« ليس منا مَن تَطير ، أو تُطَيِّر له ، أو تكَهَّن ، أو تُكُهِّن له ، أو سَحر ، أو سُحِر له ، ومَن أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول كفر بما أُنزِل على محمد ﷺ » (١) .

ورواه الطبراني من حديث ابن عباس دون قوله : « ومَن أتى . . . إلى آخره » بإسناد حسن ، كما قال المنذرى فى الترغيب والترهيب .

وروى البزار كذلك عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « مَن أتى كاهناً فصدَّقه بما قال ، فقد كفر بما أُنزِل على محمد ﷺ » (٢) .

وروى الطبرانى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لن ينال الدرجات العُلَى مَن تكهَّن ، أو استقسم ، أو رجع من سفره تطَيُّراً » (٣) .

ومعنى « استقسم » : أى استقسم بالأزلام ونحوها ، وفى القرآن : ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ (٤) .

والتطَيُّر : التشاؤم ، وهو شىء لا ينبنى على منطق ولا قاعدة ، كالذين يتشاءمون ببعض الأرقام مثل رقم (١٣) ، أو بعض الأيام ، أو بغير ذلك .

---

(١) رواه البزار ، وجوَّد إسناده المنذرى فى الترغيب والترهيب (انظر المنتقى : ١٨٥٣) . وقال الهيثمى : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح ، خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة : (٥/ ١١٧) ، وفى إسناده كلام ذكره الألبانى فى غاية المرام ، لكنه ارتقى بالحديث إلى الحسن بحديث ابن عباس المذكور .

(٢) قال المنذرى : رواه البزار بإسناد جيد قوى (المنتقى : ١٨٥٤) ، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح ، خلا عقبة بن سنان وهو ضعيف (٥/ ١١٧) ، وتعقبه الألبانى فى غاية المرام ، وانتهى إلى أن الحديث فى متنه صحيح ، فقد جاء من ثلاث طرق عن أبى هريرة خرَّجها فى الإرواء .

(٣) قال المنذرى : رواه الطبرانى بإسنادين رواة أحدهما ثقات ، وكذا قال الهيثمى (٥/ ١١٨) وجوَّد إسناده الألبانى فى غاية المرام برقم (٢٨٦) .

(٤) المائدة : ٣

وعن قَطَن بن قبيصة عن أبيه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العيافة والطِّيَرة والطَّرْق من الجِبْتِ » [1] .

قال أبو داود : الطَّرْق : الزجر ، والعيافة : الخط (يعنى الخط بالرمل) .

وقال ابن فارس : الطَّرْق : الضرب بالْحَصَى ، وهو جنس من التكهن .

وقال لبيد :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما اللهُ صانع !

و« الجِبْتُ » - بكسر الجيم - : كل ما عُبِدَ من دون الله تعالى ، وقيل : كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك .

* *

● لماذا كانت الكهانة كفراً بما أُنزل على محمد ؟

وذلك أن من المقرر فيما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ : أن الغيب مما استأثر الله تعالى بعلمه ، فلا يعلمه إلا هو سبحانه ، ومَن ارتضى من رسول يعلمه منه بما يشاء وفق الحكمة الإلَهية .

يقول تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ قُل لا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلا اللهُ ﴾ [2] .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ ﴾ [3] .

وقال لرسوله : ﴿ قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلا ضَرّاً إلا مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ

---

(١) رواه أبو داود فى الطب (٣٩٠٧) ، ورواه أحمد أيضاً : ٣/ ٤٧٧ ، والنسائى فى التفسير كما فى التحفة : ٨/ ٢٧٥ ، والطبرانى : ١٨/ ٩٤١ - ٩٤٣ ، وابن حبان (الإحسان : ٦١٣١) ، والبيهقى : ٨/ ١٣٩ ، وفى سنده حبان بن المخارق أبو العلاء ، ويقال : ابن العلاء لم يوثقه غير ابن حبان .

(٢) النمل : ٦٥ (٣) الأنعام : ٥٩

كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ (٢) .

وروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى : لا يعلم أحد ما يكون فى غَدٍ إلا الله تعالى ، ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام إلا الله تعالى ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله تعالى ، ولا يدرى أحد متى يجىء المطر إلا الله تعالى » (٣) .

وفى رواية عنه : « أُوتيتُ مفاتيح كل شىء إلا الخمس : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤) .

وعن بريدة مرفوعاً : « خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... ﴾ . . . . إلى آخر الآية الأخيرة من سورة لقمان (٥) .

وقد صح من حديث جبريل المشهور : أن جبريل سأل النبى ﷺ عن الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكنى سأخبرك بأشراطها » .

---

(١) الاعراف : ١٨٨ (٢) الجن : ٢٦ - ٢٧

(٣) رواه أحمد والبخارى ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٥٨٨٤) .

(٤) رواه أحمد : ٢/ ٨٥ ، ٨٦ ، - والآية ختمت بها سورة لقمان : ٣٤

(٥) رواه أحمد والرويانى عن بريدة ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٣٢٥٥) .

وفي رواية أبي هريرة في « الصحيحين » : « في خمس لا يعلمهن الله » .... ثم تلا رسول الله ﷺ الآية [1] .

وكل هذه النصوص تؤكد أن الغيب لا يعلمه إلا الله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [2] .

* *

● **تنبيهات مهمة :**

وأود أن أُنبه هنا على بعض الأُمور التي قد تشتبه على بعض الناس .

من ذلك : ما تذكره هيئات الأرصاد الجوية من احتمالات هبوب الرياح ، وسقوط الأمطار ، ودرجات الحرارة والبرودة والرطوبة ، والمد والجزر ، وما يتعلق بذلك من الأُمور ، فهذه لا تدخل في الغيب ؛ لأنها مبنية على أشياء مُشاهَدة ، من وجود مرتفعات أو منخفضات جوية قادمة من الشمال أو من الجنوب ، أو من الشرق أو من الغرب ، وتترتب عليها آثارها وفق سنن الله تبارك وتعالى ، فما يذكره الراصدون هنا ليس من الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، بل من المُشاهَدات التي جعل الله علمها لخلقه من البَشر .

على أن الأَولى بالراصد المؤمن في هذا المقام أن يذكر في كلامه بعض الكلمات المفيدة مثل : « إن شاء الله » ، أو يقول في النهاية : « هذا والعلم عند الله تعالى » .

ومن الأُمور التي تذكر هنا : أن بعض الناس - ومنهم بعض المفسّرين القدامى - فهم من قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [3] أن المراد بهذا العلم : أن يعلم أَذَكَرٌ ما في الرحم أم أُنثى ؟ هذا مع أن الطب المعاصر ، أصبح يعلم اليوم بواسطة الآلات والأجهزة إن كان الجنين ذكراً أو أنثى ، ومن

---

(١) رواه البخاري (٥٠) و(٤٧٧٧) ، ومسلم (٩) .

(٢) الرعد : ٩ — (٣) لقمان : ٣٤

وقت مبكّر من الحمل . ونحن نقول : إن التفسير المذكور ليس بصحيح ولا ملزم لنا ، فإن كلمة : « ما » فى قوله تعالى : ﴿ مَا فِى الأَرْحَامِ ﴾ من ألفاظ العموم ، فهى تشمل الذُكورة والأُنوثة ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والذكاء والغباء ، والسعادة والشقاء ، والحياة والموت .. إلى آخر هذه الأمور الكثيرة المتشعبة ، التى لا يعلمها كلها إلا الله سبحانه .

فإن كان الطبيب يعلم ذكورة الجنين وأُنوثته ، فإنه لا يعلم هل يكتمل نموه فى بطن أُمه أو لا ؟ هل يتزل حياً أو ميتاً ؟ هل يحيا فقيراً أو غنياً ؟ سعيداً أو شقياً ؟ يتيماً محروماً من أبويه أو أحدهما ، أو يعيش سعيداً بهما ؟ إلخ ، فهذا ما يعلمه الله وحده .

* * *

● **التحذير من السحر والسحرة :**

والإسلام كما حذَّر من الكهنة ومدعى علم الغيب من ضاربى الرمل والودع والمنجمين وأمثالهم ، حذَّر كذلك من السحر والسَحَرة ، وكاد القرآن يعتبر السحر كفراً ، وذلك فى قصة هاروت وماروت : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

وفى الحديث المتفق عليه : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : وما هنَّ يا رسول الله ؟ قال : « الشرك بالله تعالى ، والسحر ، وقتل النفس [2] التى حرَّم الله إلا بالحق .. » فقدَّم السحر على القتل .

---

(١) البقرة : ١٠٢

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٥٦) .

وروى أحمد وأبو يعلى والطبرانى وابن حبان فى صحيحه عن أبى موسى أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنة مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومُصدِّقٌ بالسحر »(١) .

وقد تقدَّم حديث عمران بن حصين وفيه براءة الرسول ممن سَحر أو سُحِر له ، وحديث ابن مسعود فيمن أتى عرَّافاً أو ساحراً . . .

وروى البخارى عن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر .

وصح عن أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها : أنها قتلت ساحرة سحرتها .

* * *

● التنجيم ضرب من السحر والكهانة :

والتنجيم : ضرب من الكهانة أو السحر ، وهو علم يزعم أصحابه ربط حوادث الأرض بنجوم السماء ، ويدَّعون أنه سيحدث كذا فى سنة كذا ، من البلاء والغلاء ، والموت ، وقد عرف الناس كذبهم من قديم ، وقالوا فيهم : « كذب المنجمون ولو صدقوا » .

وفى الحديث اعتبار علم النجوم هذا شُعْبة من السحر .

---

(١) رواه أحمد : ٣٩٩/٤ ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧٤/٥) : رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما ثقات ، وهو في الإحسان (٥٣٤٦) ، ورواه الحاكم ، وصححه ووافقه الذهبى : ١٤٦/٤ ، وفي سنده أبو حريز مختلف فيه ، وقال الحافظ فى التقريب : صدوق يخطئ ، وله شاهد عن أبى سعيد الخدرى عند أحمد : ١٤/٣ ، عن عطية العوفى – وهو ضعيف – يمكن أن يتقوى به ويحسن ، وحسَّنه الالبانى فى غاية المرام .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن اقتبس علماً من النجوم اقتبس شُعبة من السحر ، زاد ما زاد » (1) .

قال الخطابى : علم النجوم المنهى عنه : هو ما يدّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى لم تقع وستقع فى مستقبل الزمان ، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح ، ومجىء المطر ، وظهور الحر والبرد ، وتغير الأسعار ، وما كان فى معانيها من الأمور ، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب فى مجاريها ، وباجتماعها واقترانها ، ويدّعون لها تأثيراً فى السُّفْليات ، وأنها تتصرف على أحكامها ، وتجرى على قضايا موجباتها .

وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطٍ لعلم استأثر الله سبحانه به ، لا يعلم الغيب أحد سواه .

فأما علم النجوم الذى يُدرك من طريق المشاهدة والحس ، كالذى يُعرف به الزوال ، ويُعلم به من جهة القِبْلة ، فإنه غير داخل فيما نهى عنه .

وذلك : أن معرفة رَصْد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعدُ صاعدةٌ نحو وسط السماء من الأفق الشرقى ، وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأُفق الغربى .

وهذا علم يصح دَرْكه من جهة المشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التى يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصده.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القِبْلة : فإنما هى كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها ، وصدقهم فيما أخبروا به عنها ، مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ، ويشاهدوها فى حال الغيبة عنها ، فكان إدراكهم : الدلالة عنها

---

(1) رواه أبو داود فى الطب (٣٩٠٥) ، وابن ماجه فى الأدب (٣٧٢٦) ، وأحمد فى المسند (٢٠٠٠) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وقد صحّحه النووى فى رياض الصالحين ، والذهبى فى الكبائر ، كما فى الفيض : ٦/ ٨٠

بالمعاينة ، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم ، إذ كانوا غير متهمين فى دينهم ، ولا مُقصِّرين فى معرفتهم [١] .

وبهذا نتبين أن « علم النجوم » المذموم أو « علم التنجيم » هو غير « علم الفلك » الذى نبغ فيه المسلمون من قديم ، وكان لهم فيه علماء راسخون ، والذى ارتقى فى عصرنا ارتقاءً كبيراً ، حتى استطاع الإنسان بواسطته أن يصل إلى القمر ، ويحاول غزو الكواكب الأخرى .

* * *

● علماء الإسلام مجمعون على حرب الكهانة والسحر :

لا مكان فى الإسلام إذن لمنجم ولا ساحر ولا كاهن ولا عرَّاف . وهذا بإجماع أئمة الإسلام فى سائر الأعصار ، كما ترى ذلك فى شروحهم للأحاديث التى جاءت فى ذم الكهانة والكُهَّان ، والعرافة والعرَّافين .

قال البغوى : العرَّاف : الذى يدَّعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ، ونحو ذلك .

وقيل : هو الكاهن ، والكاهن : هو الذى يخبر عن المغيَّبات فى المستقبل . وقيل : الذى يُخبر عما فى الضمير .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : إن العرَّاف اسم للكاهن والمنجِّم والرَّمال ونحوهم ، كالحازر الذى يدَّعى علم الغيب ، أو يدَّعى الكشف .

وقال أيضاً : والمنجِّم يدخل فى اسم العرَّاف ، وعند بعضهم هو معناه .

وقال أيضاً : والمنجِّم يدخل فى اسم الكاهن عند الخطابى وغيره من العلماء ، وحكى ذلك عن العرب ، وعند آخرين : هو من جنس الكاهن ، وأسوأ حالاً منه ، فيُلحق به من جهة المعنى .

---

(١) من معالم السنن : ٥/٣٧١ ، ٣٧٢ ، مع مختصر المنذرى ، وتهذيب ابن القيم للسنن .

وقال الإمام أحمد : العرافة : طَرَف من السحر ، والساحر أخبث .

وقال ابن الأثير : العرَّاف : المنجِّم ، والحارز : الذى يدَّعى علم الغيب ، وقد استأثر الله تعالى به .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : مَن اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفاً ، وعرَّافاً .

والمقصود من هذا : معرفة أنَّ مَن يدَّعى معرفة علم شيء من المغيَّبات ، فهو إما داخل فى اسم الكاهن ، وإما مشارك له فى المعنى فيُلحق به ، وذلك أن إصابة المخبِر ببعض الأُمور الغائبة فى بعض الأحيان يكون بالكشف ، ومنه ما هو من الشياطين ، ويكون بالفأل والزجر والطِّيرة والضرب بالحصى والخط فى الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ، ونحو هذا من علوم الجاهلية ، ونعنى بالجاهلية كل مَن ليس من أتباع الرسل عليهم السلام ، كالفلاسفة والكُهَّان والمنجِّمين ، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبى ﷺ ، فإن هذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلى الله عليهم وسلم ، وكل هذه الأُمور يسمى صاحبها كاهناً وعرَّافاً أو فى معناهما ، فمَن أتاهم فصدَّقهم بما يقولون لحقه الوعيد . وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام ، فادَّعوا بها علم الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وادَّعوا أنهم أولياء ، وأنَّ ذلك كرامة .

ولا ريب أن مَن ادَّعى الولاية ، واستدل بإخباره ببعض المغيَّبات ، فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ؛ إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقى : إما بدعاء ، أو أعمال صالحة لا صنع للولى فيها ، ولا قُدرة له عليها ، بخلاف مَن يدَّعى أنه ولى ويقول للناس : اعلموا أنى أعلم المغيَّبات ، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب ، وإن كانت أسباباً مُحرَّمة كاذبة فى الغالب .

ولهذا قال النبى ﷺ فى وصف الكُهَّان : «فيكذبون معها مائة كذبة» ، فبيَّن أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة ، وهكذا حال مَن سلك سبيل الكهان ممن يدَّعى الولاية والعلم بما فى ضمائر الناس ، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه ؛ لأن فى دعواه الولاية تزكية النفس المنهى عنها بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (١) ، وليس هذا من شأن الأولياء ، فإن شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها ، وخوفهم من ربهم ، فكيف يأتون الناس ويقولون : اعرفوا أننا أولياء ، وأنا نعلم الغيب ؟ وفى ضمن ذلك طلب المنزلة فى قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور .

وحسبك بحال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ، وهم سادات الأولياء ، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شىء ؟ لا والله ، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن ، كالصِّدِّيق رضى الله عنه ، وكان عمر رضى الله عنه يُسمَع نشيجه من وراء الصفوف يبكى فى صلاته ، وكان يمرّ بالآية فى ورده من الليل فيمرض منها ليالى يعودونه ، وكان تميم الدارى يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار ، ثم يقوم إلى صلاته ، ويكفيك فى صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى فى صفاتهم فى سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور (٢) ، فالمتصفون بتلك الصفات

---

(١) النجم : ٣٢

(٢) قوله تعالى فى سورة الرعد (١٩ ، ٢٠) ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ ...... (الآيات إلى ٢٤) ، وقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ، ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (الرعد : ٢٨ - ٢٩) ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ...... ﴾ (المؤمنون : ٥٧ - ٦١) ، وقوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ =

هم الأولياء الأصفياء ، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالَمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب ، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر . فكيف يكون المدَّعي ذلك ولياً لله ؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ، ولبَّسوا بها على خفافيش القلوب . نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة [1] اهـ.

وبهذا اتفق علماء الإسلام على مطاردة الكهانة والعرافة والتنجيم والعيافة وكل فنون السحر والشعوذة والتدجيل على عباد الله ، واعتبار ذلك مما يضاد الإيمان بالله تعالى ، ويعارض الإسلام الذى يحترم سنن الله في خلقه ، ونظام الأسباب والمسببات ، ويقدر العقل العلمى القائم على المشاهدة والتجربة في الحسيات والماديات ، وعلى البرهان في العقليات ، وعلى التوثيق في النقليات . كما قال تعالى : ﴿ نَبِّؤُنِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [2] ، ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ [3] ، ﴿ إِيتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [4] ، ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [5] ، وقد تكررت في القرآن الكريم .

ونختم هذا الفصل بدعاء أبي الأنبياء خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام :
﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِن شَىْءٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ ﴾ . (إبراهيم : ٣٨) .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ . (إبراهيم : ٤٠ ، ٤١)

* * *

= سَلَاماً ﴾ (الفرقان : ٦٣ - ٧٦) ، وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . . . ﴾ (الذاريات : ١٥ - ١٩) ، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ . . .﴾ (الطور : ١٧ - ٢٨) .

هذا وفي القرآن الكريم من صفات المؤمنين كثير جداً ، بل أكثر آى القرآن فى وصف الإيمان وأهله ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(١) انظر فتح المجيد ص ٢٩٨ - ٣٠٠ (٢) الأنعام : ١٤٣
(٣) الأنعام : ١٤٨ (٤) الأحقاف : ٤ (٥) البقرة : ١١١

محتويات الكتاب

الصفحة

الأصل الثالث : موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ، وهل يؤخذ منها حكم شرعى ؟

(٩ - ١٣٤)

الصفحة

الصفحة

الرؤى وهل تصلح دليلاً للأحكام الشرعية ؟

(١١٣ - ١٣٤)

الأصل الرابع : فى حماية التوحيد ورعاية السنن والأسباب وبيان موقف الإسلام من التمائم والرقى والكهانة (١٣٥ - ١٩٩)

الصفحة

الصفحة

* * *

رقم الإيداع ٧٤١٤ / ٩٤

I. S. B. N. 977 - 225 - 056 - X

كتب للمؤلف

١ - الحلال والحرام فى الإسلام .
٢ - الإيمان والحياة .
٣ - الخصائص العامة للإسلام .
٤ - العبادة فى الإسلام .
٥ - ثقافة الداعية .
٦ - فقه الزكاة (جزءان) .
* سلسلة حتمية الحل الإسلامى :
٧ - «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» .
٨ - « الحل الإسلامى .. فريضة وضرورة » .
٩ - « بينات الحل الإسلامى . وشبهات العلمانيين والمتغربين » .
١٠ - « أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة » .
١١ - مشكلة الفقر ، وكيف عالجها الإسلام .
١٢ - بيع المرابحة للآمر بالشراء .. كما تجريه المصارف الإسلامية .
١٣ - الصبر فى القرآن .
١٤ - غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى .
١٥ - التربية الإسلامية ، ومدرسة حسن البنا .
١٦ - رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد .
١٧ - جيل النصر المنشود .
١٨ - وجود الله .
١٩ - حقيقة التوحيد .
٢٠ - نساء مؤمنات .
٢١ - ظاهرة الغلو فى التكفير .
٢٢ - الناس والحق .
٢٣ - درس النكبة الثانية .
٢٤ - عالم وطاغية .
٢٥ - مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
٢٦ - الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد .
٢٧ - عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية .
٢٨ - الوقت فى حياة المسلم .
٢٩ - أين الخلل ؟
٣٠ - الرسول والعلم .
٣١ - نفحات ولفحات « ديوان شعر » .
٣٢ - الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه .
٣٣ - فتاوى معاصرة (جزءان) .
٣٤ - شريعة الإسلام .
٣٥ - الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
٣٦ - قضايا معاصرة على بساط البحث .
٣٧ - الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية .
٣٨ - المنتقى من الترغيب والترهيب (جزآن) .
٣٩ - الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى .
٤٠ - الفتوى بين الانضباط والتسيب .
٤١ - من أجل صحوة راشدة .
٤٢ - الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه .
٤٣ - الدين فى عصر العلم .
٤٤ - فوائد البنوك هى الربا الحرام .
٤٥ - كيف نتعامل مع السُّنَّة .
٤٦ - الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
٤٧ - تيسير الفقه .. فقه الصيام .
٤٨ - لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام .
٤٩ - المدخل لدراسة السنة النبوية .
* سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :
٥٠ - (١) شمول الإسلام .
٥١ - (٢) المرجعية العليا فى الإسلام .
٥٢ - (٣) موقف الإسلام من الإلهام والكشف
٥٣ - يوسف الصديق « مسرحية شعرية » .
٥٤ - قطوف دانية من الكتاب والسنة
٥٥ - الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة .
٥٦ - المسلمون قادمون « ديوان شعر » .
٥٧ - محاضرات الدكتور القرضاوى .
٥٨ - دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى